الكتـــاب الثـــانى

العصر الممـــلوكى

المقـــدمة
قيام دولة المماليك
فى مصر
٦٤٨ هـ - ١٢٥٠م

١ - عهد الصالح نجم الدين أيوب ونهاية الدولة الأيوبية.

٢ - دولة المماليك استمرار لدولة بنى أيوب.

٣ - لماذا سميت بدولة المماليك البحرية؟

المقـــدمة

قيـــام دولة المماليك
فى مصر
٦٤٨هـــ - ١٢٥٠م

- ١ -

عهد الصالح نجم الدين أيوب ونهاية الدولة الأيوبية

خلف الملك الكامل على عرش مصر ابنه العـادل الثـانى (٦٣٥هـــ - ٦٣٧ هـــ) = (١٢٣٧م - ١٢٤٠ م)، ولكنه كان طفلاً صغيرًا غرًا ليس له صفـات أبيـه، وقـد تمكـن أخـوه الملـك الصـالح نجم الدين أيوب من خلعه فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠م)، وسجنه فى القلعة ثم قتله بعد قليل.

وكان الصالح ذا شخصية تعيـد إلى الأذهـان شـخصية جـدة العـادل الأول وشـخصية أبيـه الكامل.

وقد شهد عصر الصالح نجم الدين حدثين خطيرين:

- شهد حركات المغول الأولى نحو الشرق الأدنى.

- وشهد حملة لويس التاسع على مصر.

ويعنينا هنا من أخبار الحدث الأول أن المغول كـانوا حـوالى ذلـك الوقـت قـد اشـتد خطرهـم وقضوا علـى الدولـة الخوارزميـة - الجبهـة الأولى للعـالم الإسـلامى - بعـد أن قاومتـهم مقاومـة عنيفة، وكان من نتائج القضاء على هذه الدولة أن شرد الجنود الخوارزميون، فتقدمـوا يعرضـون خدماتهم الحربية على كل من يريد استخدامهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة، وقد اتصل بعض هؤلاء الخوارزمية بجيش الملك الصـالح نجـم الديـن أيـوب فـى الشـام ومصـر، فأفـاد مـن خدمتهم وخاصة فى الشام، ففى ذلك الوقت وصلت إلى الشام إحدى الحملات الصليبية - ومـن رجالها سيمون دى منتفرات - فتقدم الملـك الصـالح ومعـه هـؤلاء الخوارزميـة إلى بيـت المقـدس واستولى عليها فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٤م) - وقد كـانت بـأيدى الصليبيـين منـذ المعـاهدة التـى عقدها الملك الكامل محمد مع الإمبراطور فردريك الثانى - واستعان الصـالح كذلـك بالخوارزميـة فى نضاله ضد ملوك الأيوبيين.

وكان لسقوط بيت المقدس فى يد الملك الصالح صدى قوى فى أوربا يشبه صدى سقوطها قديمًا فى يد صلاح الدين، فبدأت الدعوة لحرب صليبية جديدة قوية، وكان أكبر المتحمسين لها الملك القديس لويس التاسع. وقد حاول لويس عند التمهيد للحملة أن يزيل ما بين البابا انوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثانى من خلاف، ولكنه لم يوفق، وقد دعا البابا فى نفس الجلسة التى أعلنت فيها الحملة الصليبية على مصر إلى حملة صليبية أخرى على فردريك باعتباره خارجا على الكنيسة محرومًا منها.

وخرجت حملة لويس إلى مصر، ومنيت بالفشل[1].

والمعروف من أخبار هذه الحملة أن الملك الصالح توفى والفرنج على أهبة المسير من دمياط إلى المنصورة، وأن زوجه شجر الدر استعانت بحزمها وقوة إرادتها على إخفاء خبر موته وإدارة المعركة إلى أن وصل تورانشاه بن الصالح من الشمال. فقام بالعبء إلى أن تم للمصريين النصر النهائى، ولكن المماليك لم يلبثوا أن ثاروا به وقتلوه، وأقاموا على العرش شجر الدر، فهى بذلك تعتبر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية.

---

(١) يراجع الحديث المفصل عن الحملة فى الفصل الأخير من الكتاب الأول من هذا المجلد.

- ٢ -

دولة المماليك استمرار لدولة بنى أيوب

فى أعقاب الحملة الصليبية السابعة قامت دولة المماليك فى مصر. ودولة المماليك تعتبر فى الواقع استمرارًا لدولة الأيوبيين، لأن سلاطينها الأول كانوا مماليك للأيوبيين، ولهذا نراهم يسيرون على نهجهم فى إدارة البلاد وحكمها، فنظم الحكم واحدة فى الدولتين إذا استثنينا بعض النظم الجديدة التى أدخلوها فيما بعد واقتبسوها عن المغول بحكم اتصالهم وتأثرهم بهم[1].

وهناك فارق هام بين الدولتين، وذلك أن الدولة الأيوبية - رغم استقلالها - كانت تدين بالولاء الروحى للخلافة العباسية التى كانت لا تزال قائمة فى بغداد، فهناك إذن نقص كان يشوب استقلالها، أما الدولة المملوكية فقد عاصرت عند قيامها سقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول، وسعى سلاطينها حتى نجحوا فى نقل هذه الخلافة إلى مصر، فتم لهم بهذا كل مظاهر الاستقلال، وأصبح لمصر منذ ذلك الحين مركز الزعامة على كل دول الشرق الأدنى، بل وعلى كل الدول الإسلامية الأخرى.

---

(١) يراجع الفصل الذى كتبه المقريزى عن «رياسة جنكزخان» فى كتابه «الخطط».

- ٣ -

لماذا سميت بدولة المماليك البحرية ؟

ويحق لنا قبل أن ندخل فى تفاصيل الحديث عن تاريخ دولة المماليك البحرية أن نشير إشارة سريعة إلى الاسم الذى عرفت به فى كتب التاريخ وهو «دولة المماليك البحرية».

والذى تذكره المراجع أن الدولة تنسب إلى فرقة المماليك البحرية التى كونها الصالح نجم الدين، وسماها البحرية نسبة إلى بحر النيل[1]، وذلك لأنه أسكنها فى القلعة التى بناها خصيصًا لهم فى جزيرة الروضة والتى كانت تطل على النيل.

ولكن هذا السبب كان موضع مناقشة لأن المراجع التى أرخت للدولة الأيوبية تشير إلى وجود فرقة أخرى من المماليك كونها الملك العادل أبو بكر (جد الملك الصالح) وأسماها «البحرية العادلية»، كما أن الفرقة التى كونها الصالح كانت تعرف باسم «البحرية الصالحية» تمييزًا لها عن الفرقة البحرية التى كونت قبل عهده أو بعد عهده مثل «البحرية الظاهرية» التى تنسب إلى الملك الظاهر بيبرس.

ويلاحظ كذلك أن المؤرخ ابن تغرى بردى أشار فى كتابه «النجوم الزاهرة» عند وصفه لموكب الخليفة الفاطمى الآمر إلى وجود فرقة من الجند تسمى «البحرية».

وفى الوقت الذى أنشئت فيه فرقة المماليك البحرية الصالحية فى مصر كانت توجد فرقة من المماليك البحرية فى اليمن، فقد ذكر الخزرجى فى كتابه «العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية» أن السلطان نور الدين عمر بن رسول - مؤسس الدولة الرسولية فى اليمن سنة ١٢٣٢م - استكثر من المماليك البحرية حتى بلغ عددهم ألف فارس، وأنهم كانوا يحسنون من الفروسية والرمى ما لا يحسنه مماليك مصر البحرية.

فهذا القول يثبت بطلان نسبة البحرية إلى بحر النيل بعد أن أثبت وجود بحرية بعيدة عن مصر والنيل.

ومؤرخو الحروب الصليبية المسلمون يشيرون فى كتبهم إلى وجود فرق من جند الصليبيين الوافدة من أوربا تحمل اسم «البحرية» وأطلقوا عليها اسم «الفرنج البحرية».

---

(١) أول من قال بهذا الرأى من المؤرخين القدامى ابن خلدون فى تاريخه، طبعة بولاق، ج ٥، ص ٣١٣، قال: «وشاع أنهم سموا البحرية نسبة إلى القلعة التى بناها الصالح بين شعبتى النيل إزاء المقياس» - ومن بعده قال المقريزى: الخطط، طبعة النيل: ج ٣، ص ٣٧٤ «وأسكنهم معه فى قلعة الروضة وسماهم البحرية»

والأرجح - فيما نرى - أن هؤلاء المماليك سموا بالبحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار أوعن طريق البحار، ويؤيد هذا رأى «جوانفيل» مؤرخ الحملة الصليبية السابعة على مصر فقد قال فى كتابه «سيرة القديس لويس» إنهم يسمون البحرية أو رجال ما وراء البحار، ورأى جوانفيل له قيمته لأنه اشترك فى محاربة المماليك البحرية الصالحية، وأسر عندهم، واتصل بهم، وتحدث إليهم.

وممن يأخذ بهذا الرأى أيضًا المؤرخ التركى رضا نور، فقد قال فى كتابه «تاريخ الترك» إنهم سموا بالبحرية لأنهم جاءوا مع تجارهم البنادقة عن طريق البحر[1]، وقال فى موضع آخر من كتابه إن المغول كانوا يحبون البنادقة ويقفون عليهم تجارة الرقيق الذى كانوا يأخذونه من القفجاق[2].

فإذا عرفنا أن هؤلاء المماليك الغرباء كانوا رقيقًا يجمع من أسواق الرقيق فى بلاد القفجاق والقوفاز أى فى الأراضى الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود - وأن التجار البنادقة كانوا هم الذين ينقلون هؤلاء المماليك فى سفنهم، وأن الطريق المعتاد الذى كانوا يسلكونه من بلادهم إلى مصر كان - كما يصفه القلقشندى عبر البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية، ومنه عبر البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء الإسكندرية أو ميناء دمياط، إذا عرفنا هذا كله تأكد لدينا التفسير السابق أنهم إنما سموا بالبحرية لأنهم جاءوا إلى مصر عبر البحار ومن وراء البحار.

---

(١) تاريخ الترك: ج ٩، ص ١٩١، طبعة ١٩٢٦ م.

(٢) نفس المرجع، ج ٩، ص ١٩٠، وانظر كذلك: أمين الخولى: صلات بين النيل والفولجا، القاهرة ١٩٦٤ م، ص١٧ - ١٨.

البـاب الأول

سنوات التجربة العشر

الفصل الأول : الملك المعز عز الدين أيبك

١ - توليته السلطة .
٢ - النزاع مع الأيوبيين فى الشام .
٣ - التنافس بين زعماء المماليك .
٤ - ثورة الأعراب فى صعيد مصر .
٥ - الصراع بين أمراء المماليك .
٦ - نور الدين على بن أيبك .
٧ - نظام تولية السلطنة فى العصر المملوكى .

الفصل الثانى: الملك سيف الدين قطز.

١ - كيف تولى العرش؟.
٢ - موقعة عين جالوت.
٣ - نتائج موقعة عين جالوت.
٤ - مقتل قطز وتولية بيبرس.
٥ - سنوات التجربة العشر.

الفصل الأول

الملك المعز عز الدين أيبك

١ - توليته السلطنة :

كانت شجرة الدر أولى سلاطين المماليك ، وقد راعى المماليك عند اختيارها أنها كانت زوج أستاذهم الصالح، وأم ولده خليل - الذى مات طفلاً - وأنها وقفت إلى جانبه فى محنته الشديدة أثناء اعتقاله فى الكرك قبل أن يلى السلطة فى مصر، وأنها أبدت استعدادًا كبيرًا لتولى السلطنة عندما أشرفت بحزمها على إدارة المعركة بعد موت الصالح، ولكن هذا كله لم يكن كافيًا لإقناع الرأى العام فى مصر والعالم الإسلامى وخاصة بعد أن أرسل الخليفة العباسى يستنكر تولية امرأة ملك المسلمين .

وقد كان التقليد المتبع فى عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف بها الخليفة العباسى وأرسل إليه التقليد بذلك .

وخطاب الخليفة العباسى المستعصم الذى استنكر فيه تولية شجرة الدر يحمل ضمنا عدم موافقته على توليتها، ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم - وهو الأمير عز الدين أيبك - السلطنة، ولقب بالملك المعز، وتزوج من شجرة الدر التى خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يومًا.

غير أن انتقال الملك إلى المماليك أثار معارضة جديدة ، وذلك لأنهم لا ينتمون إلى أسرة مالكة، وإلى هذا أيضًا فإنهم ليسوا أحرارًا، بل هم - كمال قال بعض المؤرخين المعاصرين - (قد مسهم الرق). فاستقر الرأى أخيرًا بين أمراء المماليك على أن يشترك فى الحكم مع المعز عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسى - حفيد الكامل محمد - وكان عمره حينذاك نحو ست سنوات .

ولكن هذا الإجراء لم يسكت غضبة ملوك الأيوبيين فى الشام ، فهم يعتبرون مصر جزءًا من ملكهم الموروث بل أعظم أجزاء هذا الملك ، ويعتبرون محاولة المماليك اغتصابها نوعًا من العقوق والخروج يجب معاقبتهم عليه، لهذا خرج كبير البيت الأيوبى الملك الناصر - صاحب حلب - بجيش كبير واتجه نحو مصر لتأديب هؤلاء المماليك واستعادة مصر منهم .

وحاول المعز أيبك أن يقطع حجة الأيوبيين فأعلن - إلى جانب إشراك الطفل الأيوبى معه فى الحكم - أن مصر تابعة كما كانت قديمًا للخلافة العباسية، وأراد كذلك أن يكسب عطف

الرأى العام فاحتفل بنقل جثمان أستاذه الملك الصالح احتفالاً مهيبًا من قلعة الروضة إلى المقبرة التى بناها لنفسه بين القصرين، وفى نفس الوقت أخذ يستعد لملاقاة الناصر.

ووصل الناصر بجيشه واشتبك مع جيش المماليك فى معركة بالقرب من الصالحية، وكادت تدور الدوائر فى أول المعركة على المماليك، ولكنهم لم يلبثوا أن انتصروا، وفر الناصر ومن معه من أفراد البيت الأيوبى إلى الشام.

وقد كان لهذا النصر نتائج خطيرة ، وذلك أن الملك لم يصف المماليك بمجرد موت المعظم تورانشاه بن الصالح وإنما قامت فى سبيلهم عقبات كثيرة استنفد القضاء عليها جهودًا كثيرة وسنوات طويلة.

٢ - النزاع مع الأيوبيين فى الشام :

كان أول هذه العقبات وأخطرها معارضة الأيوبيين أصحاب الحق الشرعى فى ملك مصر، فهذا النصر على جيش الملك الناصر - صاحب حلب كان أول نصر أحرزه المماليك ضد الأيوبيين ، وكان من نتائجه أن أبعدوهم نهائيًا عن مصر، فلم يفكر واحد من الأيوبيين فى المجىء إلى مصر غازيًا بعد ذلك، وكان من نتائج هذا النصر أيضًا أن أقدم المعز أيبك على عزل الطفل الأيوبى - شريكه فى الحكم - واستقل نهائيًا بملك مصر.

ثم خدمه الحظ مرة أخرى عندما تدخل الخليفة المستعصم فى النزاع بينه وبين الأيوبيين، فأرسل رسوله إلى الطرفين يطلب إليهما حسم النزاع القائم بينهما، وتقرير قواعد الصلح، وكان الدافع للخليفة على هذه الوساطة، خوفه من الخطر المغولى الذى كان يقترب من ملكه ، فرأى أن يسرع ملوك المسلمين إلى الاتحاد لتكوين جبهة قوية تقف فى وجه هذا الخطر المدمر.

نجح رسول الخليفة فى مهمته ، وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين على أن تكون مصر والجزء الجنوبى من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من أبناء البيت الأيوبى، وأن يطلق المعز سراح من وقع فى أسره من رجال الملك الناصر ومن أبناء البيت الأيوبى.

وبهذا بدا النزاع بين المماليك والأيوبيين وكأنه قد انتهى ، ولكنه لم ينته فى الواقع، وإنما بقيت له ذيول ستنتهى نهائيًا فى عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وفى سنة ٦٦١هـ بالذات، كما سنبين فيما بعد.

وبعد القضاء مؤقتًا على هذه العقبة ظهرت عقبات أخرى ومعظمها عقبات داخلية ، ومن أهمها :

٣ – التنافس بين زعماء المماليك :

وذلك أن أيبك لم يل السلطنة لأنه كان أكبر الأمراء سنا أو أقدرهم أو أقربهم إلى البيت الأيوبى، بل لأنه كان حائزًا لرضا معظم الأمراء من المماليك .

فلما ولى العرش بدأ الأمراء الآخرون يبدون غضبهم لهذه التولية ، فقد كان الكثيرون منهم يرون أنفسهم أحق بالسلطنة من أيبك، وقد بقى بعض هؤلاء المماليك فى مصر، وشاركوا فى سلسلة المؤامرات التالية، وآثر البعض الآخر ترك مصر حيث التحقوا بخدمة الملك الناصر كبير ملوك الأيوبيين فى الشام .

كذلك أبعد المعز أيبك الأمراء الأكراد ، فهم ليسوا أتراكًا ، وقلوبهم مع الأيوبيين بحكم الانتماء إلى جنس واحد . ونشير هنا إلى كبيرهم الأمير حسام الدين بن أبى على، فقد قطع المعز أيبك خبزه (أى استرد منه إقطاعه) ، ورحل حسام الدين إلى الشام والتحق بخدمة الناصر .

وكان أكبر زعماء المماليك الذين بقوا فى القاهرة الأمير سيف الدين أقطاى، وسيشتد خطر هذا الأمير ويتطلع إلى السلطنة، ولكن المعز يبادر إلى إلقاء القبض عليه وقتله . وسنفصل الحديث عن مقتله بعد حديثنا عن ثورة الأعراب .

٤ – ثورة الأعراب فى صعيد مصر :

ومن الصعاب الخطيرة التى اعترضت سبيل المماليك فى أول أمرهم ثورة العناصر العربية فى مصر، فقد كانت فى مصر على ذلك العهد قبائل عربية كثيرة، استقرت فى الصعيد وفى بعض مديريات الوجه البحرى وبخاصة فى مديريتى الشرقية والبحيرة .

وقد أنفت هذه القبائل أن تخضع للدولة الجديدة ، لأن ملوكها من الجنس التركى، ولأنهم مماليك، وثارت هذه القبائل فى الصعيد عند مدينة ديروط بزعامة شيخ من شيوخها اسمه حصن الدين ثعلب ، وفى كلمة حصن الدين التى حاول أن يبرر بها ثورته إيضاح لدوافع هذه الثورة فقد قال :

(نحن أصحاب البلاد ، وإنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد) .

وأرسل الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى على رأس جيش لإخضاع هذه الثورة، واستطاع أقطاى أن ينتصر على حصن الدين بالقرب من ديروط، ثم طلب حصن الدين الأمان من المعز فأمنه، وإستدعاه إليه ، فلما وصل إلى معسكره قبض عليه وعلى كثير من أتباعه الذين

كانوا فى صحبته وقتل كبار الأمراء العرب، أما زعيمهم حصن الدين فقد سجن فى الإسكندرية .

ثم تتبع المعز أيبك القبائل العربية فى مديريات الوجه البحرى وأنزل بها الهزائم الكثيرة، ثم زاد فى الضرائب التى تؤخذ منهم إلى أن ضعف أمرهم فلم يقووا على القيام بثورة لها شأنها طول العصر المملوكى .

يقول المقريزى تأييدًا لهذا :

(وأمر المعز بزيادة القطيعة على العرب ، وبزيادة القود المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعسف والقهر فذلوا وقلوا، حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال فى وقتنا) .

(أى الوقت الذى كان يعيش فيه المقريزى وهو القرن الخامس عشر الميلادى) .

٥ - الصراع بين أمراء المماليك :

ارتفع شأن أقطاى بعد نجاحه فى القضاء على ثورة العرب ، ومالت إليه المماليك البحرية والتفوا حوله، فبدأ الملك المعز أيبك يستشعر خوفًا منه وراح يدبر الأمر لقتله قبل أن يشتد بأسه ويفكر فى عزله وتولى السلطنة مكانه .

وأرسل المعز يستدعى أقطاى إلى القلعة بحجة أنه يريد استشارته فى أمر من الأمور، ولما وصل أقطاى إلى القلعة أمر أيبك بغلق أبوابها، ومنع مماليك أقطاى من الصعود معه، ثم لم يلبث أن قبض عليه وقتله .

وسرت الإشاعة فى القاهرة بقتل أقطاى ، فذهب نحو سبعمائة من أصحابه إلى القلعة ظنًا منهم أنه سجن ولم يقتل، وكان فى مقدمتهم أميران كبيران سيكون لهما شأن وذكر فى تاريخ مصر بعد ذلك وسيليان عرشها، وهما: بيبرس البندقدارى، وقلاوون الألفى. ولما وصل هؤلاء إلى القلعة، ألقى إليهم المعز أيبك برأس أقطاى ، فلما أيقنوا من هلاكه خرجوا من مصر فى الحال خوفًا على أنفسهم وتفرقوا شيعًا، فمنهم من اتجه إلى الملك الناصر صاحب حلب، ومنهم من اتجه إلى الملك المغيث صاحب الكرك، أو إلى الخليفة العباسى فى بغداد، أو إلى الملك علاء الدين ملك سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى .

وقد تتبع الملك المعز أيبك من بقى فى مصر من المماليك البحرية، فقبض عليهم ، وقتل البعض، وسجن البعض الآخر، وصادر أموالهم، وبات يقلقه أمر البحرية الفارين خشية أن يحرضوا الناصر صاحب حلب أو سلاجقة الروم على الإغارة على مصر، فأرسل إلى الملكين الناصر وعلاء الدين يحذرهما من البحرية وغدرهم، ولكنهما لم يستمعا إليه، بل قرب كل منهما هؤلاء الأمراء الفارين وألحقوهم بخدمتهما .

وكان لمقتل أقطاى نتائج أخرى داخلية ، وذلك أن المماليك انقسموا منذ ذلك الحادث قسمين ، وأصبح المعز أيبك يخشى على عرشه من الفريق المعادى إذا قوى واشتد بأسه ، وخاصة أن زعماء هذا الفريق على اتصال بملوك ذوى خطر ، فسعى للتحالف مع أمير مجاور من أمراء المسلمين ، وهو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . وكان بدر الدين أقوى شخصية فى الشرق الأوسط وقتذاك ، فأعلنه أيبك برغبته فى التزوج من ابنته .

ولقد جر هذا السعى على المعز الوبال الكثير ، بل لقد كان السبب فى القضاء على حياته ، فقد علمت زوجته شجرة الدر بمشروع الزواج فحنقت على المعز وتزعمت حركة المعارضة ، وانتهى بها حنقها إلى أن دبرت مؤامرة لقتله فى سنة ٦٥٥هـ ، وثار مماليك المعز لقتله ودبروا مؤامرة أخرى انتهت بقتل شجرة الدر[1] .

٦ - نور الدين على بن أيبك :

وأقيم على بن أيبك - وهو غلام صغير فى نحو الخامسة عشرة من عمره - فى السلطنة ولقب بالملك المنصور نور الدين على وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) غير أنه لم يل السلطنة إلا نحو ٣ سنوات ثم عزله سيف الدين قطز .

٧- نظام تولية السلطنة فى العصر المملوكى :

وهذا تقليد بدأ فى عهد نور الدين على بن المعز أيبك وسيظل متبعًا طول عصر المماليك . وذلك أن كل سلطان من سلاطينهم كان يعنى عناية كبيرة بتوريث ابنه السلطنة ، فيأخذ له الأيمان ويوصى له بولاية العهد ، فإذا توفى احترم الأمراء المماليك هذه الأيمان مؤقتا ، وأقاموا الصغير على العرش ، ولكنه لا يمكث سلطانًا إلا ريثما يصفى الأمراء ما بينهم من حساب وتنتهى مؤامراتهم ومنافستهم إلى الاتفاق على تولية واحد منهم ، فيعزل الصبى الصغير دون جلبة ، وينفى إلى دمياط أو الإسكندرية ، وقد يبعد خارج مصر فيرسل إلى أراضى الدولة البيزنطية مثلا .

ومعنى هذه الظاهرة أن الدولة المملوكية لم تعرف النظام الوراثى ، وإن كانت قد حاولته فإنها لم تفلح فى التمكين له أو الأخذ به ، وذلك باستثناء حالات قليلة حدثت لأبناء قلاوون .

ويرجع السبب فى عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلى أنهم كانوا جنودًا محاربين ، نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة ، فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا فى أسواق الرقيق أو أسروا فى ميادين الحروب ، فضعفت عندهم مع الزمن

---

(١) يراجع فى هذا كتاب السلوك للمقريزى ، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

معانى الصلات الأسرية وقويت عندهم فى نفس الوقت معانى صلات أخرى كان لها شأن كبير فى حياتهم وهى :

- صلات الأستاذية التى تربط بين المملوك وأستاذه (أى السلطان أو الأمير الذى اشتراه ورباه) .

- وصلات الخجداشية (الخشداشية) أو الزمالة التى تربط المملوك بالمملوك .

فكان يصعب على المماليك دائمًا أن يلى السلطنة ابن سلطان سابق، لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم وبينه من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له، فكانوا فى العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتًا، احترامًا لما أخذ عليهم من مواثيق وأيمان إلى أن تنتهى المشاورات بين كبار أمرائهم ويتفقوا على تولية أحدهم. وكان الاختيار يقع عادة على أقرب الأمراء إلى السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلى السلطان السابق كان فى العادة أقدمهم، والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التى كان يحترمها ويعمل بها المماليك .

الفصل الثانى

سيف الدين قطز

١ - كيف تولى العرش :

كان نائب السلطنة لنور الدين على هو سيف الدين قطز وهو الذى ولى السلطنة بعد عزله، ويقال إنه من البيت المالك الخوارزمى، فلما قضى المغول على الدولة الخوارزمية شرد مع من شرد من جنودها وسيق إلى أسواق الرقيق، وقادته المقادير إلى مصر حيث ترقى فى سلك الجندية إلى أن أصبح نائبًا للسلطنة .

كان نور الدين على بن أيبك غلامًا صغيرًا ومع هذا لم تكن له حمية الملوك، بل كان يقضى معظم وقته فى اللهو واللعب بالحمام ومنافرة الديوك ومناطحة الكباش وركوب الحمير، ولهذا تركت السلطة كلها فى يد نائب السلطنة سيف الدين قطز .

وأهم حدث جرى فى عهد نور الدين على هو محاولة الأيوبيين فى الشام للمرة الثانية الإغارة على مصر واستعادتها من أيدى المماليك، وقد قام بهذه المحاولة الملك المغيث عمر بن العادل الثانى بن الكامل محمد - صاحب الكرك - وذلك فى سنة ٦٥٦هـ، فتولى الدفاع عن مصر وعن دولة المماليك الناشئة سيف الدين قطز، وتقابل بجيشه مع المغيث عمر عند مدينة الصالحية وهزمه هزيمة شنعاء ارتد بعدها إلى الكرك .

وفى عهد نور الدين على أيضًا هاجم هولاكو العراق وقضى نهائيًا على الخلافة العباسية، وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريبًا شديدًا .

وبهذا النصر قرب الخطر المغولى من الشام ومصر قربًا شديدًا، ولم يكن فى الشام ملك قوى يستطيع الوقوف أمام هذا الخطر الداهم ومقاومته، فعقدت الآمال كلها على مصر وعلى جيشها المملوكى، وبعبارة أدق على سيف الدين قطز، لأن السلطان الشرعى نور الدين على لم يكن له من السن أو المقدرة ما يؤهله لتحمل هذا العبء .

ويضاف إلى هذا سبب آخر وهو أن قطز كان موتورًا من التتار وكان أعرف الناس بهم وبخطرهم على العالم الإسلامى، إذا هم نجحوا فى الاستيلاء على الشام ومصر، وذلك لأنه كما يقال من أصل خوارزمى، فيقال إن أمه كانت أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وأن أباه كان ابن عم ذلك السلطان، وأنه حضر المعارك الأخيرة التى قضى فيها المغول على الدولة الخوارزمية، وقد أسر فى أعقابها وبيع فى دمشق ثم حمل إلى القاهرة .

لهذا كله رأى قطز أنه لا يستطيع العمل وهو نائب السلطنة ، والسلطان الفعلى غلام لاه، فأقدم فى الحال على عزل نور الدين على، ودافع عن فعلته بقوله :

(ولابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة) .

وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمه وأبعدهم إلى دمياط ثم إلى الإمبراطورية البيزنطية.

وقد غضب لعزل المنصور على بعض مماليك أبيه، فاعتذر إليهم قطز بقوله :

(إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم) .

وأخذ يترضاهم بعد هذا حتى هدأت غضبتهم .

٢ - موقعة عين جالوت:

وقرب الخطر المغول من مصر خطوة أخرى، فقد تقدم المغول إلى الشام، واستولوا على حلب، ثم على دمشق. وفى تلك اللحظة نسى المماليك الذين كانوا قد فروا من مصر بعد مقتل أقطاى أحقادهم القديمة، وعادوا إلى مصر، وفى مقدمتهم ركن الدين بيبرس البندقدارى، وأخذوا يتكتلون لملاقاة هذا الخطر الجديد .

وهذه ظاهرة امتاز بها المماليك وتكرر ظهورها أكثر من مرى طوال تاريخهم، فهو دائم النزاع فيما بينهم حتى إذا دهمهم خطر خارجى تناسوا ما بينهم من خلاف ووقفوا أمام هذا الخطر صفا واحدا وذلك بدافع الشعور الغريزى للدفاع عن كيانهم .

وبعد الاستيلاء على دمشق أرسل هولاكو سفارة إلى قطز ومعها كتاب[1] كان تهديد ووعيد يطلب فيه من المماليك الاعتراف بالولاء للمغول بسيادتهم على الشام ومصر .

وأقدم قطز بدافع من شجاعته وحبه للدفاع عن العالم الإسلامى وكرهه الشديد للمغول على تمزيق الخطاب، وقتل سفراء هولاكو وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة، وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول .

ومات فى ذلك الحين الخان الأعظم مانجوخان، وأنفذ قطز طلائع جيشه بقيادة بيبرس لملاقاة المغول فتقابلوا وإياهم عند مدينة غزة، وانتصر بيبرس على طلائع المغول لأول مرة وردهم عن غزة .

وخرج قطز ببقية جيشه ، ثم تقدم الجيش المملوكى كله نحو الشمال إلى أن إلتقى بجيش المغول قرب مدينة بيسان فى موضع يقال له عين جالوت، وبدا النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوى العناصر المحاربة، وبين فنيين من فنون الحرب الممتازة فى العصور الوسطى .

---

(١) راجع نص الخطاب فى كتاب السلوك للمقريزى

وكانت هذه الوقعة تجربة خطيرة يتوقف على نتائجها مصير العالم الإسلامى بل مصير العالم العربى الأوربى المسيحى كذلك إذا انتصر المغول . وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة، وذلك لأن قطز كان قد عانى كثيرا لإقناع الأمراء فى القاهرة للخروج معه لقتال التتار، وكاد الخلاف بينه وبينهم بالكثيرين عن الخروج معه. ويقول المؤرخون إن قطز لما يئس من إقناع المماليك، ركب بكوساته (أى بموسيقى الجيش وطبوله) وقال:

(أنا ألقى التتار بنفسى)

فلما رأوا مسيره ساروا على كره .

وفى أول المعركة هزم المماليك وتفرقوا، ولكن قطز ثبت فى مكانه وألقى بخوذته إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : (وا إسلاماه!) ، وحمل بنفسه على العدو ، فالتف المماليك حوله ثانية، وانتصروا على عدوهم ، وقتل قائد المغول كتبغا .

غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا، وأوشكوا أن ينتصروا على المماليك ثانية فتقدم قطز، وصرخ صرخته الأولى ثلاث مرات .

(وا إسلاماه، يا الله: انصر عبدك قطز على التتار) .

فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك، وحملوا على التتار حتى هزموهم هزيمة شنعاء، فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرًا لله .

وفر التتار بعد هذه الهزيمة من دمشق ، ثم من شمال الشام كله، فاستولى عليه قطز، وبذلك أصبحت مملكته تضم مصر والشام كله حتى حلب .

وأقام قطز واليًا من قبله من دمشق ، وأعاد بعض ملوك الأيوبيين إلى ممالكهم، كالملك المنصور صاحب حماة، والملك الأشرف موسى صاحب حمص، وكان قد انضم إلى هولاكو فأقامه نائبًا على حمص، فلما انتصر قطز طلب منه الأمان فأمنه، أما حلب فقد أقطعها قطز للملك السعيد علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل .

٣ - نتائج موقعة عين جالوت :

وموقعة عين جالوت تعتبر من أهم المواقع الحاسمة فى تاريخ المماليك، بل فى تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى، بل فى تاريخ العالم كله، وأهميتها بالنسبة للمماليك أنها كانت تجربة من أخطر التجارب التى مرت بها الدولة المملوكية الجديدة، وأنها كانت من أقوى العوامل التى ساعدت على تدعيم ملكهم، وقد كان حتى ذلك الحين مزعزعًا غير معترف به، وذلك أن

القوى الإسلامية كلها لم تستطع الوقوف فى وجه هذا التتار الجارف المدمر، فهزم الخوارزميون- رغم قوتهم الحربية الممتازة - بعد نضال عنيف، ثم هزمت الخلافة العباسية فى العراق وقضى عليها نهائيا هناك، ثم هزمت جيوش الأيوبيين فى الشام.

فالتتار منذ خروجهم من موطنهم الأصلى لم يذوقوا طعم الهزيمة أبدا قبل هذه الموقعة، ولهذا أثاروا الرعب الشديد فى العالم الإسلامى كله. وليس أوضح فى التعبير عن هذا الرعب من الأوصاف التى أثبتها المؤرخ العربى الكبير عز الدين بن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ)، أدرك ابن الأثير قبيل موته السنوات الأولى من تاريخ هذه الغارات وهى فى طريقها إلى قلب العالم الإسلامى، وظل سنوات يقاوم نفسه أن تسطر أخبارها، فإنه كان يستشف ما وراء الأفق، ويعى وعيا باطنيا أن فى تاريخ هذه الحوادث نعيا للإسلام والمسلمين، إنه يعبر عن هذا كله بقوله فى حوادث سنة ٦١٧هـ:

(لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟! فياليت أمى لم تلدنى، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا).

ثم يعدد ابن الأثير بعد ذلك الأقطار والبلدان الإسلامية التى اجتاحتها جيوش المغول فى أقل من سنة فيقول:

(فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبالاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما تذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلاً ونهبًا، ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرمنية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد القادر فى أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله).

لم يشاهد ابن الأثير هذه الغارات فقد كان مقيمًا فى الشام حينذاك، ولكنه كان معاصرًا لها واستمع إلى أولئك السعداء الذين نجوا بأنفسهم وفروا بأرواحهم إلى الشام. ثم روى بعض ما سمع. ومما يدل دلالة واضحة على مبلغ الذعر والرعب اللذين أصابا نفوس المسلمين فى ذلك الوقت أنه يتابع حديثه فيقول:

(ولم يثبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه، ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحمها لا غير، وأما دوابهم التى يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل من عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون لشىء من خارجه).

إلى أن يقول :

ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا زال يقتلهم واحدًا واحدًا لا يتجاسر أحد بمد يده إلى ذلك الفارس، ولقد بلغنى إن إنسانًا منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به .. إلخ) .

أما المؤرخ الجغرافى ياقوت فقد كان مقيمًا بمدينة مرو وشاهد هذه الكارثة ففر منها كما يقول :

(بقلب واجب، ودمع ساكب، ولب غارب، وحلم غائب، فيتوصل ، وما كاد حتى استقر بالموصل، بعد مقاساة أخطار، وابتلاء واصطبار، وتمحيص الأوزار، وإشراف غير مرة على البوار والتبار، لأنه مر بين سيوف مسلولة، وعساكر مغلولة، ونظام عقود محلولة، ودماء مسكوبة مطلولة، وكان شعاره كلما علا قتبًا، أو قطع سبسبًا : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا .

فالحمد لله الذى أقدرنا على الحمد ، وأولانا نعما تفوق الحصر والعد، وجملة الأمر أنه لولا فسحة الأجل، لعز أن يقال : سلم البائس أو وصل ، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون، وألحق بألف ألف هالك بأيدى الكفار أو يزيدون، وخلف خدفه ذخيرته، ومستمد معيشته.. إلخ) .

وعندما أغار المغول على شمال الشام واستولوا على معظم مدنه وخاصة حلب (فى سنة ٦٥٧هـ)، فمر منها من استطاع النجاة بنفسه وحياته إلى جنوبى الشام ومصر يتملكهم الذعر، ويروون من قوة التتار وتخريبهم تاريخًا جديدًا . وكان من الفارين مؤرخ حلب القاضى كمال الدين بن العديم، وقد عاد إليها فى سنة ٦٦٠هـ بعد أن استردها المسلمون سنة ٦٥٨هـ فشاهد من تخريب المغول لها ما أثار حفيظته وأيقظ شاعريته، فرثاها رثاء قويًا بقصيدة طويلة باكية[1] .

هذه الأقوال وغيرها كثير تبين فى وضوح القيمة الكبرى للانتصار الذى أحرزه المماليك فى موقعة عين جالوت، وتؤكد ما ذكرناه من أنها كانت من أهم الأسباب التى ساعدت على تدعيم ملك المماليك، فقد بدأ العالم الإسلامى ينظر إليهم نظرة عطف واكبار .

ويعترف المؤرخون الأوربيون عند التأريخ لهذه المعركة أنها لم تنقذ العالم الإسلامى وحده من خطر المغول المخرب المدمر، بل لقد أنقذت العالم المسيحى كذلك، لأنه لم يكن فى أوربا

---

(١) انظر القصيدة كاملة فى : ابن واصل ، مفرج الكروب، وبعض أبياتها فى : (أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص ٢٥١) .

المسيحية وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا على المماليك وتقدموا فى اتجاههم الطبيعى نحو أوربا .

ومن النتائج الهامة لهذه الموقعة أيضًا أنها قضت نهائيًا على المعارضة الأيوبية، بل لقد وضعت السلطان المملوكى موضع السيادة ممن بقى من ملوك الأيوبيين، فقد طلب صاحب حمص الأمان من قطز، فأمنه وأعاد إلى ملكه – كما أسلفنا – وكذلك فعل بصاحب حماة، أما الملك الناصر صاحب حلب فكان قد أرسل يستغيث بالمماليك فى مصر عندما قرب الخطر المغولى فى بلاده، ولما تأخرت النجدة وهاجم المغول حلب اضطر أن يستسلم لهم، ثم قصد هولاكو بعد عودته إلى فارس فأكرمه وأعطاه فرمانًا بتوليته على الشام ومصر، وخرج من عنده قاصدًا الشام، فوصلت أخبار هزيمة المغول عند عين جالوت فأعاده هولاكو إليه وقتله .

٤ – مقتل قطز وتولية بيبرس :

وقد طمع بيبرس بعد الانتصار على المغول وضم الشام لملك مصر أن يولى على حلب، ولكن قطز أقطعها للملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ – صاحب الموصل – مكافأة له على ما أداه أبوه للدولة المملوكية الناشئة من خدمات جليلة، فقد دل سلاطينها على حركات المغول وعلى أسرار مشروعاتهم الحربية للتقدم نحو الشام .

ولكن بيبرس كان يعتقد أن جهوده فى مقاومة المغول لا تقل عن جهود بدر الدين لؤلؤ إن لم تتفوق عليها، فإليه يرجع الفضل الأكبر فى إثارة المماليك بالشام لمقاومة التتار، وهو صاحب الفضل الأكبر فى إحراز النصر الأول عليهم عند غزة، ثم هو من الأمراء القلائل الذين صدقوا القتال مع قطز فى عين جالوت . لهذا غضب بيبرس الغضب كله عندما آثر قطز ابن بدر الدين لؤلؤ بنيابة حلب، وأخذ منذ ذلك الحين يأتمر بقطز. وتدبير المؤامرات فن قديم يتقنه بيبرس منذ ائتمر على قتل المعظم تورنشاه بن الصالح نجم الدين .

وعاد قطز بجيشه إلى مصر، فلما وصل إلى الصالحية وثب به بيبرس والمؤتمرون معه وقتله، ولم يقدر لقطز أن يشهد الزينات العظيمة التى أقامتها القاهرة لاستقباله وإنما شهدها السلطان الجديدة ركن الدين بيبرس البندقدارى، فقد تقدم واحد من أمراء المماليك (وهو الأمير أقطاى المستعرب) عندما انتشر خبر مقتل قطز، وسأل المؤتمرين :

– من الذى قتل السلطان ؟

فقال بيبرس: (أنا قتلته) .

فقال الأمير :

– (ياخوند ، إجلس فى مرتبة السلطنة مكانه) .

وهكذا أصبح بيبرس سلطانًا للدولة المملوكية ، ولقب بالملك القاهر، ثم بالملك الظاهر .

٥ - سنوات التجربة العشر :

عشر سنوات كاملة مضت منذ قتل الملك المعظم تورانشاه إلى أن ولى بيبرس، وهذه المدة هى الدور الأول من تاريخ الدولة المملوكية، ويعتبر هذا الدور بحق دور التجربة والامتحان، وقد اجتازته الدولة بنجاح بعد بذل الجهود المضنية، فقد قضت على معظم الصعوبات التى قامت فى سبيلها .

قضت على ثورة البدو العرب فى مصر، وتغلبت على كبار ملوك البيت الأيوبى، ولم يحاول الانتقاض على الدولة بعد ذلك إلا الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وسيقضى بيبرس على حركته فى يسر وسهولة .

وأهم من هذا كله أن الدولة الجديدة أثبتت فى هذه السنوات العشر أنها ذات مقدرة وجدارة حربية ممتازة، وخاصة بعد انتصارها الرائع فى عين جالوت، لهذا بدأ الرأى العام فى مصر وفى العالم الإسلامى يحترمها ويمجدها ويعترف بها .

ولم يعد ينقص الدولة الجديدة من المقومات إلا السند الدينى الأعلى، أى اعتراف الخليفة بها، فمصر كانت دار خلافة فى العصر الفاطمى، وفى العصر الأيوبى ما كان ملوك الأيوبيين يصبحون ملوكًا شرعيين إلا إذا صدر إليهم تقليد الولاية من الخليفة العباسى فى بغداد. وفى هذا الحين كانت بغداد قد سقطت فى أيدى التتار بعد أن قتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين، لهذا نرى سلاطين المماليك يبذلون محاولات كثيرة لإقالة هذه الخلافة من عثرتها بإحيائها فى بغداد أولاً، ثم بنقلها إلى القاهرة أخيرًا، وسيكون نقل الخلافة إلى مصر مشروعها من أهم المشروعات التى قام على تنفيذها الظاهر بيبرس لتدعيم أركان الدولة الجديدة .

البـــاب الثـــانى

عصر الظاهر بيبرس

الفصل الأول : بيبرس ونقل الخلافة العباسية إلى مصر .

الفصل الثانى : العلاقات بين المماليك والمغول فى عهد بيبرس .

١ - علاقات عداء مع مغول فارس .

٢ - علاقات صداقة مع مغول القبيلة الذهبية .

٣ - الفرقة الوافدية .

الفصل الثالث : العلاقات بين المماليك والصليبيين فى عهد بيبرس .

١ - لويس التاسع فى سوريا .

٢ - بيبرس يواجه الخطرين الصليبى والمغولى .

٣ - مهارة بيبرس الدبلوماسية .

٤ - سفارة ابن واصل إلى الإمبراطور منفرد .

٥ - نضال بيبرس ضد الصليبيين .

الفصل الأول

بيـــبرس

ونقل الخلافة العباسية إلى مصر

من الأخطاء الشـائعة أن بيـبرس كـان أول مـن فكـر فـى نقـل الخلافـة العباسـية إلى مصـر، والحقيقة أنه كان أول من نجح فى تنفيذ هذا المشروع ، وقد سبقه إلى التفكير فيه كثيرون .

وأول من فكر فى هذا المشروع أحمد بن طولون ، وذلك عندما اشتد الخـلاف بينـه وبـين ولى عهد الخلافة أبى أحمد الموفق طلحة، فقد فكر ابن طولون فى استدعاء الخليفة العباسى المعتمـد إلى مصر للإقامة بها، وكاد الخليفة ينجح فى الفرار من العراق والمجىء إلى مصر لـولا أن قبـض عليه الموفق وأعاده إلى بغداد ثانية.

ثم فكر فى تحقيق هذا المشروع محمد بن طغج الإخشيد لنـاصرة الخليفـة ضـد الحمدانيـين، وليقوى دعائم دولته إذا أصبحت مصر مركزًا للخلافة، غير أنه لم يوفق فى مسعاه .

وقد لاحظنا كيف كان يسعى الأيوبيون دائما لاستصدار التقاليد من الخليفة العباسى بالموافقة على توليتهم. بدأ هذا التقليد منذ عهد صلاح الدين، فقد سعى أثناء نضاله ضد ابن نـور الديـن لاستصدار تقليد من الخليفة بتوليته مصر واليمن وبلاد العرب والشام وما قد يتم على يديه مـن فتوح، وكان لهذا التقليد أثره فى تقوية مركـزه ونجاحـه فـى نضالـه ، وقـد حـرص علـى هـذا التقليد ملوك الدولة جميعا، وكثيرًا ما كانوا يلجـأون للخليفـة العباسـى كلمـا نشـب نـزاع بـين بعضـهم والبعـض الآخـر ، وقـد ذكرنـا أن الصـالح نجـم الديـن كـان قـد أوصـى نائبـه الأمـير حسام الدين ابن أبى على بأن يعهد بالبلاد بعد وفاته إلى الخليفـة العباسـى لأنـه كـان ضعيـف الثقة بابنه تورانشاه .ولما قامت الدولة المملوكية سعى أمراؤها وسلاطينها للحصـول علـى موافقـة الخلافة العباسية واعترافها لتدعيـم مركزهـم أمـام ادعـاءات أمـراء البيـت الأيوبـى ومحاولتـهم لاسترجاع مصر، فقد بدأوا بتنصيب شـجرة الـدر ملكـة علـى مصـر، وأرسـلوا يسـألون الخليفـة موافقته، ولكن الخليفة لم يقر هذا الوضـع ، وإنمـا أرسـل يقـول لهـم: (إن كـانت الرجـال قـد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً) .

وخضع المماليك للأمر الواقع ، وخلعوا شجرة الدر وولوا المعز أيبك ، وقد سعى المعـز لتـأكيد هذا المعنى منذ الشهور الأولى لتوليته ، وخاصة عندما علم أن فريقـًا من الجنـد يسـعون لتوليـة أحد الأيوبيين، فقد أمر بأن ينادى فى القاهرة:

(إن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وإن الملك المعز نائبه بها) .

ولما تقررت قواعد الصلح بين المعز أيبك والناصر الأيوبى فى سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ، أرسل المعز إلى الخليفة العباسى (يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر).

وبعد هذا الحادث بسنتين حطم المغول الخلافة العباسية ببغداد ، وقتل الخليفة المستعصم وولده وكثير من رجال البيت العباسى، واستطاع أفراد منهم القرار بأرواحهم. وهنا لجأ المماليك إلى سياسة جديدة .

كانت هذه السياسة ترمى أولاً إلى محاولة إحياء الخلافة فى بغداد، ثم تطورت إلى التفكير فى نقلها إلى القاهرة .

بدأ المحاولة قطز ، وذلك بعد انتصاره على المغول فى عين جالوت ، فقد استدعى إلى دمشق واحدًا من العباسيين الفارين - واسمه أبو العباس أحمد - وبايعه بالخلافة، واتجه هذا الخليفة نحو بغداد وفى صحبته جماعة من العرب فافتتح عانة والحديثة والأنبار، وعند ذلك قتل قطز ، وتولى بيبرس، فاستدعى أبا العباس هذا لمقابلته ، وعند وصوله إلى القاهرة كان قد سبقه إليها عباسى آخر يدعى أبو القاسم أحمد، فآثر أبو العباس للعودة إلى الشام، وسار إلى حلب حيث بايعه بالخلافة أميرها شمس الدين أقوش البرلى، الخارج عن طاعة السلطان بيبرس، وأمده بسبعمائة فارس من التركمان، فتولى قيادتهم ووصل بهم إلى عانة .

أما أبو القاسم أحمد فكان قد وصل إلى القاهرة قبل ذلك وفى صحبته جماعة من العربان، فقابله بيبرس خارج القاهرة ، ثم عقد مجلسًا عامًا حضره كبار رجال الدولة، وشهد جماعة من هؤلاء العربان أمام الحاضرين بأن أبا القاسم أحمد هو ابن الخليفة الظاهر العباسى. وعند ذلك أعلن قاضى القضاة قبوله لهذه الشهادة، وبايع أبا القاسم ، ثم تبعه السلطان وجميع الحاضرين، ولقب أبو القاسم منذ ذلك الحين بالمستنصر بالله.

وبعد أن تمت البيعة للمستنصر قلد بيبرس ما بيده من ملك ، وما قد يضيفه إليها أو يفتحه من بلاد الكفار، ثم كتب السلطان إلى النواب والملوك بسائر البلاد يأمرهم بأخذ البيعة فى بلادهم للخليفة الجديد، وأن يدعى له على المنابر، ثم يدعى للسلطان الظاهر بيبرس بعده، كما أمر أن تنقش السكة باسم الخليفة والسلطان معا .

وكان بيبرس حتى ذلك الحين لا يزال يتجه الاتجاه القديم الذى بدأه قطز وهو محاولة إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلى بغداد، ولذلك بدأ يزود الخليفة المستنصر بالجند والسلاح والمال ليعمل على استرداد بغداد من أيدى التتار ويستقر بها. ويقال إن ما أنفقه بيبرس لإعداد الخليفة وجيشه بلغ ألف ألف دينار .

وبلغ من عناية بيبرس بتحقيق هذا المشروع أنه خرج مع الخليفة إلى دمشق وفى عزمه أن يزوده بجند آخرين من جيش الشام. وفى دمشق بدأ بيبرس يغير رأيه فى هذا المشروع، فإنه يقال إن أحد أمراء الموصل أسر إليه (أن الخليفة إذا استقر فى بغداد نازعك وأخرجك من مصر).

وبدأ بيبرس يعيد التفكير فى الموضوع من جديد، وضعفت حماسته الأولى لتزويد الخليفة بجيش كبير، واكتفى بأن أرسل معه ثلاثمائة فارس فقط، وكأنه أراد بإرساله فى هذا العدد القليل أن يلقى به إلى حتفه.

واتجه المستنصر بهذا الجيش الضئيل إلى الرحبة ، وهناك انضم إليه أربعمائة فارس آخرون من عرب العراق، ثم لحق به ستون مملوكًا من مماليك الموصل وثلاثون من جند حماة، وتقدم المستنصر بهذا الجيش المختلط من الرحبة إلى مشهد على حيث تقابل مع رفيقه أبى العباس أحمد (وكان معه سبعمائة فارس من التركمان) واتفقا على أن يعملا معا لإعادة الخلافة العباسية، وتقدمًا إلى الحديثة، وخرجا منها يقصدان هيت. وقرب هذه المدينة الأخيرة إلتقى جيشهما بجيش التتار، فقضى التتار على جيشهما قضاء مبرمًا، ولم ينج من هذا الجيش إلا عدد قليل فيه أبو العباس أحمد، أما الخليفة المستنصر فلم يعثر له على أثر.

وعاد أبو العباس أحمد إلى مصر ، فأحسن بيبرس استقباله، ويبدو أن بيبرس بدأ منذ ذلك الحين ينفض يده نهائيًا من المشروع القديم، كما أخذ يفكر جديًا فى إقامة الخلافة العباسية بمصر، فعقد مجلسًا عامًا يشبه ذلك المجلس الذى كان قد عقده لمبايعة المستنصر، وقرىء إشهاد بإثبات نسب أبى العباس أحمد، وأقره قاضى القضاة ، وبويع الخليفة من السلطان والحاضرين، ولقب بالحاكم بأمر الله . وخطب له على منابر مصر والشام ، ولما تمت البيعة قلد السلطان الظاهر بيبرس أمور البلاد وحكمها .

وبهذا تم إحياء الخلافة العباسية نهائيًا . غير أن بيبرس لم يفكر فى تزويد هذا الخليفة الجديد بجيشه لاستعادة بغداد، وإنما أبقاه فى القاهرة ليكون قريبًا منه وتحت عينه، وبذلك لا يخشى بأسًا من محاولاته .فالظاهر بيبرس لم يشأ أن يخلق قوة ثانية إلى جانبه، وإنما أراد أن يكتب سندًا شرعيًا أمام الرأى العام يقوى به مركزه ومركز دولته، ولهذا أسكنه فى أحد أبراج القلعة وعيونه ترقبه من بعيد، ولم يكن له من مظاهر السيادة إلا الخطبة باسمه يوم الجمعة .

فالخلافة العباسية لم تستفد شيئًا من هذا الإحياء ، وحتى مظهر التبعية القديم وهو ضرب اسم الخليفة على السكة مع اسم السلطان ، والذى تمتع به الخليفة السابق المستنصر حرم منه الخليفة الجديد الحاكم، وإنما الذى استفاد من إحياء الخلافة العباسية هم سلاطين المماليك وعاصمتهم القاهرة، فقد أصبح سلاطين المماليك منذ ذلك الحين إلى الفتح العثمانى لمصر

سنة ١٥١٧هـ ولهم المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الإسلامى باعتبار أنهم حماة الخلافة والمتمتعون ببيعتها، وكذلك أصبحت القاهرة مكانة سياسية ممتازة تفوق كل عواصم العالم الإسلامى ، لأنها مقر الخلافة التى يدين لهما بالولاء الروحى كل العالم الإسلامى .

حقيقة كانت القاهرة مقرًا للخلافة الفاطمية قبل ذلك ، ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصرانها وتنافسانها وتناوئانها وتطعنان فى نسبها وشرعيتها، وهما الخلافة العباسية فى بغداد، والخلافة الأموية فى قرطبة .

أما فى العصر المملوكى فلم يكن هناك فى العالم الإسلامى سوى خلافة واحدة هى خلافة القاهرة، وحتى الخلافة الأموية فى الأندلس كانت قد زالت ولم يكن يدين لها بالولاء - حتى فى عنفوان قوتها - إلا الأندلس وحدها .

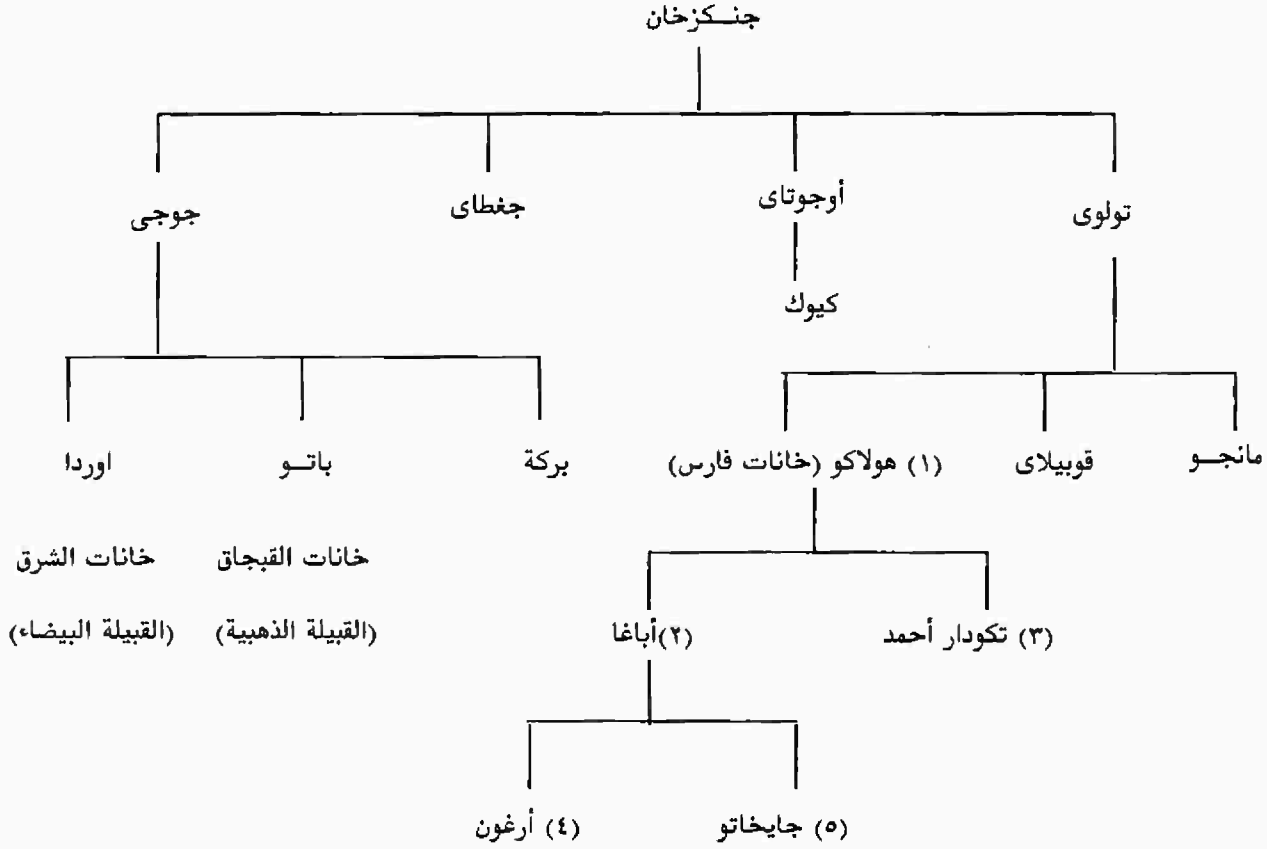
جنـكزخان
تولوى
أوجوتاى
جغطاى
جوجى
كيوك
مانجـو
قوبيلاى
(١) هولاكو (خانات فارس)
بركة
باتـو
اوردا
(٢)أباغا
(٣) تكودار أحمد
خانات القبجاق
(القبيلة الذهبية)
خانات الشرق
(القبيلة البيضاء)
(٤) أرغون
(٥) جايخاتو

الفصل الثانى

العـــــلاقات

بين المماليك والمغول

فى عهد بيبرس

قسمت دولة المغول بعد موت جنكز خان بين أولاده الأربعة:

- أوجوتاى، وحكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية.
- جغطاى، وحكم الجزء الأوسط.
- باتو بن جوجى، وحكم الجزء الغربى، وحكام هذا الجزء يسمون خانات القبيلة الذهبية أو خانات القفجاق.
- تولوى، وحكم بلاد فارس، ثم ضم ابنه هولاكو إليها جزءًا كبيرًا من آسيا الصغرى.

وقد قامت العلاقات بين الدولة المملوكية فى عهد بيبرس وبين فرعين من هذه الفروع:

- خانات القفجان - أو خانات القبيلة الذهبية - وكانت العلاقات معهم علاقات تحالف وصداقة.
- وخانات فارس، وكانت العلاقات معهم علاقات عداء وحروب.

١ - علاقات عداء مع مغول فارس:

لم تكن موقعة عين جالوت خاتمة العلاقات بين الدولة المملوكية وبين المغول، بل كانت فاتحة هذه العلاقات، وقد قدر بيبرس منذ اللحظة الأولى أن المغول لابد مقدمون على الأخذ بثأرهم، ولهذا لم يكد ينتهى من مشكلة الخلافة حتى أخذ يستعد لمناضلة المغول. وقد كان نضاله مع المغول متصلا اتصالا وثيقا بنضاله ضد بقايا الصليبيين فى الشام، وذلك أن الصليبيين والدول المسيحية عامة كانت تطمع فى نشر الدين المسيحى بين المغول، وفى أن يعتنق خانات المغول هذا الدين، وبهذا يتعاون المغول والصليبيون معًا على القضاء على الدولة المملوكية.

لم يكد يعلم المغول بموت قطز حتى اجتمعت فلولهم الموجودة على حدود الدولة المملوكية، وأغارت بقيادة بيدرا على مدينة البيرة، ثم تقدموا إلى حلب واستولوا عليها، كان الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ شخصية ضعيفة، فلم يستطع الوقوف أمام هذه الجنود التترية، وترك التتار حلب إلى حماة، وانتصروا هناك على صاحبها الأيوبى. وبذل بيبرس الجهد فى ذلك

الحين حتى عقد حلفًا مع بركة خان ملك التتار الشماليين، ثم هادن الصليبيين، وذلك كى يتفرغ تمامًا لمناضلة إيلخانات فارس، وأرسل بيبرس جزءًا من جيشه استرد البيرة.

وفى ذلك الحين مات هولاكو وخلفه ابنه أباغا، وقد حاول هذا الملك أن يسعى إلى مصالحة بيبرس، فأرسل إليه خطابًا فى هذا المعنى، غير أن الخطاب كان ذا لهجة تهديدية فقد قال فيه:

«وأنت لو صعدت إلى السماء، أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحًا».

ولهذا رفض بيبرس المصالحة، وأرسل إلى أباغا خطاب أكثر تهديدًا وقال لرسوله:

«اعلم أنى وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من

يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من

بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض».

وقامت مناوشات كثيرة بينت جيوش التتار وجيوش المماليك فى السنوات التالية إلى أن كانت سنة ٦٧١ هـ.

وكان بيبرس فى دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم على البيرة، فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه، ثم حمل بعض السفن المفككة إلى نهر الفرات حيث أعاد تركيبها، وعبر بجنوده إلى الشاطئ الشرقى حيث انتصر على التتار الذين تقهقروا سريعًا، واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها.

ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلى ميدان آخر، إلى آسيا الصغرى.

كانت دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى تتاخم حدود الدولة المملوكية الشمالية، وكانت هذه الدولة قد ضعفت وأصبحت تابعة للمغول منذ أيام هولاكو، ولذلك فكر بيبرس فى مهاجمة أملاك هذه الدولة ليقضى على نفوذ التتار بها.

وكانت السلطة فى الدولة حينذاك فى يد معين الدين سليمان البرواناه (والبرواناه لفظ فارسى معناه الحاجب)، وكان البرواناه فى أول الأمر فى صف المغول أصحاب النفوذ الفعلى على الدولة، فلما علم بتقدم بيبرس نحو الشمال انضم إليه وراسله، واشتبك بيبرس مع جيوش سلاجقة الروم وجيوش المغول فى موقعة حاسمة عند الأبلستين فى سنة ١٢٧٧م، وفيها انتصر بيبرس انتصارًا حاسمًا عظيمًا. وانتقل بعد هذا النصر إلى قيسارية عاصمة الدولة، ونزل بدار السلطنة، وجلس على عرش سلاجقة الروم.

ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخرى، فقد حطمت دولة سلاجقة الروم، وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى فى أنحاء آسيا الصغرى سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد. من هذه الدويلات: دولة بنى قرمان، ودولة بنى عثمان، ودولة ذى القدرية وغيرها[1].

عاد بيبرس بعد انتصاره إلى الشام، غير أنه لم يلبث أن سمع باستعداد التتار للانتقام، وقد ذهبت جيوشهم فعلاً إلى آسيا الصغرى وانتقموا من سكان الأبلستين وقيسارية وغيرها من المدن انتقامًا شديدًا لمساعداتهم السابقة لبيبرس، وصحب أباغا البرواناه معه عند عودته، ثم قتله بتحريض خوندات البيت المغولى، لأنه كان السبب فى قتل رجالهم وجنودهم فى موقعة أبلستين.

كانت دولة سلاجقة الروم قد أصبحت من أملاك بيبرس بعد انتصاره، وكان من المنتظر أن يعود إليها لطرد التتار منها ثانية، ولكنه لم يفعل. ولعل السبب الأكبر فى أنه لم يذهب أنه مات بعد ذلك بقليل فى أواخر سنة ٦٧٦ هـ. (١٢٧٧م).

٢ - علاقات صداقة مع مغول القبيلة الذهبية:

هذا موجز العلاقات بين بيبرس وبين مغول فارس، أما العلاقات بينه وبين مغول القبيلة الذهبية - أو مغول القفجاق - فقد كانت علاقات ود وصداقة.

ويرجع هذا إلى أن ملك هذه القبيلة المعاصر لبيبرس بركة خان بن جوجى كان من أول من أسلم من خانات المغول، وقد تبودلت الرسائل والسفارات بين الملكين. بل ظلت تتبادل هذه الرسائل والسفارات بين سلاطين المماليك البحرية وخانات القبيلة الذهبية أمدًا طويلاً، وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بين الدولتين نحو أربعين سفارة، منها تسعة فى عهد الظاهر بيبرس نفسه.

٣ - السفارات المتبادلة بين الدولتين فى عهد بيبرس:

١ - فالسفارة الأولى أرسلت من قبل الظاهر بيبرس إلى بركة خان فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١م)، وكان الرسل عددًا من تجار العلان - وهم كما تذكر المراجع جنس من الناس من سكان القرم - وقد حملهم بيبرس رسالة إلى بركة يحرضه فيها على هولاكو ويحثه على ضرورة مقاتلة الكفار، حتى وإن كانوا من أهله، ويضرب له المثل بالنبى محمد - عليه السلام - فإنه قاتل عشيرته الأقربين فى سبيل إعلاء كلمة الله، وهذا - كما يقول بيبرس فى رسالته - «هولاكو لأجل زوجته النصرانية أقام دين الصليب».

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطة.

٢ - وفى السنة الثانية ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) أرسلت السفارة الثانية من قبل بيبرس إلى بركة خان، وكانت تتكون من الأمير كش (وهو أصلاً من رجال خوارزمشاه) وله معرفة طيبة بالبلاد والألسنة، والفقيه مجد الدين، واثنين من التتار الواصلين أخيرًا يعرفان البلاد، وكانت الرسالة التى حملوها تتضمن استجلاب محبة بركة وحثه على الجهاد، ووصفا للعساكر الإسلامية فى مصر وأجناسها وقوتها، مع بيان بالبلاد التى خضعت لبيبرس والملوك الذين دانوا له بالطاعة، وذلك للتهوين من شأن هولاكو وتقبيح إهمال محاربته، وتختتم بالإشارة إلى جنود بركة الذين وصلوا إلى مصر وما قوبلوا به من إكرام، وأرفقت بالرسالة وثيقة كتب فيها نسب الخليفة العباسى بماء الذهب.

٣ وفى نفس السنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) أرسلت أول سفارة من بركة إلى بيبرس، وكان على رأسها الأمير جلال الدين، والشيخ نور الدين على، وتعتبر ردا على السفارة الأولى، وقد تقابل أعضاؤها مع أعضاء السفارة الثانية المرسلة من بيبرس إلى بركة فى القسطنطينية. وفى الخطاب الذى حملته هذه السفارة يتقدم بركة بالشكر لأخيه بيبرس ويثنى عليه، ويطلب منه النجدة لمقاتلة هولاكو، ويأخذ عليه مخالفته لياسة جنكز خان، وينبئ بركة السلطان بيبرس أنه هو وأخوته الأربعة يعملون جاهدين على محاربة هولاكو من مختلف الجهات إعزازا لكلمة الإسلام، ثم يلتمس منه إرسال عسكره إلى الفرات لسد الطريق على هولاكو، فيهاجمه بركة من ناحية، وبيبرس من الناحية الأخرى؛ وبذلك يتمكنان من القضاء عليه.

وقد احتفل بيبرس بهذه السفارة فى القاهرة احتفالاً فخمًا، وأسهم الخليفة العباسى كذلك فى الاحتفال بها، فخطب خطبة الجمعة، ودعا فى نهايتها للسلطان بيبرس ثم للملك بركة خان، واجتمع بعد ذلك بالرسل وتحدث إليهم فى شئون الإسلام، وقدم لهم الملابس والخلع، وقد أرسل بيبرس إلى مكة والمدينة وبيت المقدس يأمر بالدعاء لبركة بعده على المنابر.

٤ - وأرسلت السفارة الرابعة من بركة إلى بيبرس فى نفس السنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) وكانت تتكون من أربوغا، وارتمور، وأوناماس، وشهاب الدين غازى، وكانت مهمتها مرافقة البعثة الموفدة من بيبرس أثناء عودتها إلى القاهرة. وكانت تحمل رسالة مكتوبة وأخرى شفوية لإعلان سرور الإسلام وأهله بما حل بهولاكو. وبيان بعدد من أسلم من بيوت التتار وقبائلهم وعشائرهم. وكلف شهاب الدين بأن يصف للسلطان ما شهد من حرب بركة ضد هولاكو، لأنه كان حاضرًا وشاهد عيان لهذه الحرب، وأن يشكر لبيبرس جهوده الموفقة لإقامة خليفة عباسى. وقد شهد

أعضاء هذه السفارة أثناء مقامهم فـى القـاهرة حفـل ختـان بركـة خـان[1] بـن بيـبرس، وعرضًا عسكريًا للجيش المصرى نال إعجابهم. وقبل سفرهم حملهم الخليفة وصايا شفوية لبركه يحثه فيها على إقامة الشريعة والعدل، والجهاد فى سبيل الله.

٥ - وأرسلت السفارة الخامسة من بيبرس إلى بركة خان فى سـنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) وعلى رأسها فارس الدين أقرش السعودى الأسـدى، والشـريف عمـاد الديـن عبـد الرحيـم الهـاشمى، وكانت مهمتها مرافقة البعثة السابقة أثناء عودتها إلى سراى، وكانت تحمل خطابًا فيه استمالة لبركة وإظهار المودة له، مع حثه على الجهاد والاقتداء فيه بالرسول - عليه السلام -.

وقد جهزت لهم طريدة (نوع من السفن) بها عدد كبير من البحريين ومعهم مؤونة سنة، كما حملت بالكثير من الهدايا من المستطرفات الخاصة بالديار المصرية. وفى المراجع التاريخية بيان مفصل بهذه الهدايا، من بينها: مصحف - ذكر أنـه مصحـف عثمـان - بغـلاف أطلـس أحمـر مزركش، وقد وضع فـى درج مـن الأدم مبطـن بعتـابى، وكرسـى للمصحـف مصنـوع مـن العـاج والأبنوس مخرم بنقط فضة، وسجادات، وقنـاديل، وزرافـة، وحمـير، وهجـن نـادرة، وعبـى، وألبسة وثياب من صنـع الإسـكندرية، وسـيوف ورمـاح وأوتـار حريـر، وخيـل ولجـم وسـروج،

(١) نحب أن نشير هنا إلى خطأ شائع يتردد فى كتب بعض المؤرخين الأوربيين والعرب المعاصرين، فقد ذكر لين بول فى كتابه «تاريخ مصر فى العصور الوسطى» وعنه نقل الدكتور جمال الدين سرور فى كتابه عن الظاهر بيبرس، والدكتور سعيد عاشور فى كتابه «مصر فى عصر دولة المماليك البحرية» أن السلطان الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس هو حفيد بركة خان بن جوجى بن جنكزخان زعيم وإمبراطور مغول القبيلة الذهبية، والحليف الأكبر للسلطان المملوكى بيبرس، ويعللون ذلك بأن بيبرس عندما أراد أن يوثق علاقته به تزوج من ابنته، ويبالغ بعض هؤلاء المؤرخين فيبنى على هذه المقدمة الخاطئة نتائج خطيرة.

ومن الواجب أن نصحح هذا الخطأ، ودليلنا فى هذا أن المراجع العربية القديمة التى أثبتت الاسم الكامل لهذا الجد الذى سمى ابن بيبرس باسمه تقول إنه الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمى، وتذكر أنه كان أحد قواد الفرقة الخوارزمية التى فرت أمام الضغط المغولى فى عهد جنكز خان ولجأت إلى الشام واتصلت بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب.

ويؤيد هذا أيضًا أن عز الدين بن شداد المؤرخ المعاصر لبيبرس وصاحب كتاب «سيرة الملك الظاهر» ذكر فى كتابه هذا ثبتا بأسماء زوجات بيبرس ثم قال: «وأول أولاده كان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان الذى ولد فى صفر سنة ٦٥٨ هـ فى حارة العش بالقاهرة وأمه ابنة الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمى اليمكى».

وذكرت هذه المراجع كذلك اسم الأمير بدر الدين محمد وقالت إنه خال الملك السعيد بركة خان وابن الأمير حسام الدين بركة خان السابق الذكر

ونستطيع أن نضيف إلى هذا أن بركة بن بيبرس ولد فى صفر سنة ٦٥٨ هـ قبل أن يلى والده السلطنة بعشرة أشهر، وقبل أن يعقد الحلف بين دولة المماليك ومغول القبيلة الذهبية بما يزيد على سنتين، ففى هذا التاريخ لم يكن من المحتمل أن يفكر بيبرس فى عقد أى رابطة زواج مع المغول، ولم يكن من المحتمل أيضًا أن يفكر خان القبيلة الذهبية فى أن يعطى ابنته لأمير مملوكى.

ونسانيس معلمة وقرود، وخدام سود، وجوار طباخات، ومن يقوم بخدمة هذه الحيوانات ورعايتها.

وقد عملت الدولة البيزنطية على تعويق هذه السفارة أثناء مرورها بالقسطنطينية مما أدى إلى سوء العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية وقتًا ما.

٦ - وفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٤م) توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب رسولاً من قبل بيبرس إلى الملك بركة، ومعه ثلاث عمرات اعتمر بها عند مكة، حملت فى أوراق مذهبة، وشىء من ماء زمزم، ودهن بلسان وغيره[1]، وكلف الرسول أن يطلب من بركة أن يوقف غاراته على القسطنطينية استجابة لرجاء الأشكرى (إمبراطور بيزنطة)، فقد تقدم بالرجاء إلى بيبرس أن يقوم بالوساطة بينه وبين الملك بركة.

٧ - وفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧م) أرسلت سفارة من الظاهر بيبرس إلى منكوتمر - ابن أخى بركة وخليفته على العرش - وكان أعضاء هذه السفارة هم رسل الملك بركة لدى الظاهر وقت وصول الأخبار بوفاة بركة، وقد حملهم بيبرس رسالة تتضمن تقديم العزاء فى بركة والتهنئة بتولية منكوتمر، وتحريضه على قتال أباغا بن هولاكو.

٨ - وفى سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١م) أرسلت سفارة من منكوتمر إلى بيبرس وكانت تحمل رسالة يقول فيها بأنهم أعداء لأعداء السلطان، وأنهم مقيمون على محبته. ويطلبون منه النجدة على هولاكو بشرط أن ينتقل ما فى يده من بلاد إلى السلطان فى حالة النصر.

وقد اعترض المرسيلية طريق هذه السفارة وأسروا الرسل، فاحتاط الظاهر بيبرس على المرسيلية وممتلكاتهم فى جميع ثغور مصر والشام، فأطلقوا سراح الرسل وأرسلوهم إلى السلطان ومعهم جميع ما أخذ منهم.

٩ - والسفارة الأخيرة أرسلت فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) من الظاهر بيبرس إلى منكوتمر، وكانت تضم رسل منكوتمر السابق ذكرهم وفى صحبتهم الأمير سيف الدين الصوابى المهمندار، وبدر الدين بن عزيز الحاجب. وحملت السفارة معها هدية فاخرة وعقاقير كان منكوتمر قد التمس إتحافه بها.

هذا عرض موجز للسفارات المتبادلة بين بيبرس ودولة مغول القبيلة الذهبية ومنه يتضح أمران: أولهما نجاح بيبرس فى سياسته التى كانت تهدف إلى عقد أواصر الصداقة بين دولة المماليك فى مصر ودولة المغول الشمالية، وثانيهما الإفادة من هذا التحالف للقضاء على دولة مغول فارس المعادية. فقد كان بيبرس يلح دائمًا فى تحريضه بركة خان على محاربة هولاكو، واستجاب بركة فعلاً لهذا الطلب، واشتبك فى حروب ضد هولاكو.

---

(١) المقريزى: السلوك ١/٥٣٨.

٤ - الفرقة الوافدية

وكان من نتائج هذه الصداقة وهذا التحالف أن لجأ إلى مصر فى عهد بيبرس عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية الفارين من هولاكو، فأكرمهم بيبرس كل الإكرام، فاعتنقوا الإسلام، وأدخل عددا منهم جنودًا فى جيشه. وقد شجع هذا الإكرام الكثير من التتار على القدوم إلى مصر والالتحاق بجيشها، وكونوا فرقة خاصة عرفت باسم «الفرقة الوافدية».

وكانت الغالبية العظمى من أفراد الفرقة الوافدية من المغول، وقد أتى العدد الأكبر منهم إلى مصر فى عهد السلطانين الظاهر بيبرس والعادل كتبغا، والمعروف أن بيبرس كان من أكبر المعجبين بالنظم المغولية، وأن كتبغا كان مغولى الأصل.

بدأت حركة الوافدية فى أواخر العصر الأيوبى، وظلت مستمرة متتابعة نحو سبعين أو ثمانين سنة فى العصر المملوكى الأول، وقد كان أفراد الوافدية الذين أتوا إلى مصر أحرارًا، وظلوا بعد التحاقهم بخدمة الجيش المملوكى أحرارًا، فى حين أن نظام الدولة فى العهد المملوكى ما كان يسمح لأحد أن يصل إلى الوظائف الحربية أو يرقى سلمها إلا إذا نشأ نشأة مملوكية.

وإذا نحن تتبعنا خطوات ورود الوافدية إلى مصر، نجد أن أول جماعة من الوافدية المغولية وصلت إلى مصر فى عهد بيبرس فى ذى الحجة سنة ٦٦٠ هـ، وكانت تتكون من مائتى فرد بما فيهم النساء والأطفال، وكان هؤلاء جزءًا من قوة حربية أرسلها بركة خان لمساعدة هولاكو، فلما ساءت العلاقات بين الرجلين وقامت الحرب بينهما أمر بركة قواته بالعودة إليه، فإن وجدوا صعوبة يذهبون إلى الأراضى المملوكية. وقد اتجهوا فعلاً نحو مصر، ولما علم بيبرس بوصولهم خرج لمقابلتهم بنفسه، وأكرمهم، وأمر بعضهم، وألحق البعض الآخر جنودًا بالفرقة البحرية.

هذه المعاملة الكريمة شجعت التتار الآخرين على الانضمام إلى الجيش المملوكى. ففى سنة ٦٦١ هـ وصلت إلى مصر مجموعة أخرى تتكون من ١٣٠٠ فارس من المغول والبهادرية، وفى سنة ٦٦٢ هـ وصلت مجموعات جديدة تضم وافدين من شيراز يتولى قيادتهم سيف الدين بكلك Baklak واكتبار Iktibar الخوارزمى جمدار جلال الدين خوارزمشاه (والجمدار هو الموظف الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله جامادار، ويتكون من لفظين فارسيين: أحدهما جاما ومعناه الثوب، والثانى دار ومعناه ممسك)، والأمير حسام الدين بن ملاح أمير العراق، ومعهم كثيرون من أمراء العرب من قبيلة خفاجة، وخرج السلطان بيبرس لمقابلتهم بنفسه كذلك، وأنعم على بكلك بإمرة طلبخاناه:

وفى نفس السنة وصل إلى مصر بعض التتار والأتراك البغدادية مستأمنين، ولكن المراجع تشير إلى أن بيبرس أوجس خيفة من هذه الهجرة الأخيرة وأعطى أوامره للجيش أن يكون على استعداد.

وفى سنة ٧٦٥ هـ وصل إلى مصر حاكم خرتبرت ونفر من فرسانه ووافدية من الأناضول، وخرج السلطان كعادته لمقابلتهم.

ففى عهد بيبرس بلغ مجموع الفرسان الذين وفدوا على الدولة المملوكية ٣٠٠٠ فارس، وقد أمر بعض هؤلاء أمراء طبلخاناه أو أمراء عشرينات أو أمراء عشرات، كما عين البعض الآخر فى وظائف الدولة، فكان منهم الساقى والسلاحدار والجمدار، وألحق نفر آخرون بالخدمة فى فرق الأمراء.

ومن الملاحظ أن بيبرس أنزل كل التتار الوافدية فى عهده فى العاصمة القاهرة، ولم يرسلهم إلى السواحل الشامية الفلسطينية، بل أرسل بدلاً عنهم بعض القبائل التركمانية.

وفى المدة بين عهد بيبرس وعهد كتبغا فترت حركة قدوم أو هجرة الوافدية من التتار، ففى سنة ٦٨٢ هـ وفد على مصر ١٩ فارساً فقط وفى صحبتهم عائلاتهم، وفى سنة ٦١ هـ وفد إلى مصر ٣٠٠ فارس آخرون.

وكانت أكبر هجرة من هجرات الفرسان التتار الوافدية على الدولة المملوكية فى سنة ٦٩٥ هـ فى عهد السلطان العادل كتبغا (وهو مغولى الأصل)، وكانت هذه الهجرة تتكون من الأويراتية، وبلغ عددها فى رأى بعض المراجع ١٠,٠٠٠ حصان، وعند البعض الآخر ١٨,٠٠٠ حصان، وكان عدد قواد هذه الفرقة يتراوح حسب المراجع المختلفة بين ١١٣ و ٢٠٠ و ٣٠٠، وقد قوبلوا فى مصر بكل ترحاب وإكرام.

أما بقية هذه القبيلة وما كان يصحبهم من أغنام وماشية فقد أرسلوا إلى مدن الساحل بالشام حيث استقروا فى عثليت والمنطقة المحيطة بها، وبعد وقت قصير اختلط أفراد هذه القبيلة بالسكان الأصليين فى مدن الساحل، ثم لم نعد نسمع عنهم شيئا.

أما الأويراتية الذين دخلوا مصر فقد بهروا بجمال وجوههم أعين الأمراء المماليك، وألحق الكثيرون منهم والكثيرون من أولادهم بالخدمة فى فرق الأمراء المماليك. وبعد قليل استدعى نفر من أفراد الأويراتية المقيمين بالساحل إلى مصر وألحقوا بفرق الأمراء المماليك، كما تزوج هؤلاء الأمراء بزوجات من نساء الأويراتية، وقد نزل الأويراتية عند وصولهم إلى القاهرة فى حى الحسينية، وكانت لهم بهذا الحى أخبار كثيرة، روى طرفاً منها المقريزى فى كتابه الخطط عند كلامه عن «حارة الحسينية» فقال فى وصف الفرقة الأويراتية التى وصلت أيام العادل كتبغا:

«ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الأمراء بالعسكر إلى لقائهم، واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للنظر إليهم، فكان لدخولهم يوم عظيم، وصاروا إلى قلعة الجبل، فأنعم السلطان على طرغاى - مقدمهم - بإمرة طبلخاناه، وعلى اللصوص بإمرة عشرة، وأعطى البقية تقادم فى الحلقة وإقطاعات وأجرى عليهم الرواتب، وأنزلوا الحسينية، وكانوا على غير الملة

الإسلامية، فشق ذلك على الناس، وبلوا مع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم .

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائة لم يصم أحد من الأويراتية، وقيل للسلطان ذلك فأبى أن يكرههم على الإسلام، ومنع من معارضتهم، ونهى أن يشوش عليهم أحد، وأظهر العناية بهم، وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوى بهم، فبالغ فى إكرامهم حتى أثار فى قلوب أمراء الدولة منه إحنا، وخشوا إيقاعه بهم، فإن الأويراتية كانوا أهل جنس كتبغا».

ثم يستطرد المقريزى فيصف جمال الأويراتية ورغبة الأمراء فى التزوج من نسائهم فيقول: «وكانوا مع ذلك صورا جميلة، فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والإناث، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم.. ثم ما قنع الأمراء بما كان منهم فى مصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة، فتكاثر نسلهم فى القاهرة واشتدت الرغبة من الكافة فى أولادهم.. إلى أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخر إلى خلع السلطان العادل كتبغا من الملك فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة، فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين قبض على طرغاى مقدم الأويراتية وعلى جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الإسكندرية فسجنهم بها وقتلهم، وفرق جميع الأويراتية على الأمراء، فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم، فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع، وكان للناس فى نكاح نسائهم رغبة.. إلخ».

الفصل الثالث

العـــــلاقات

بين المماليك والصليبيين فى عهد بيبرس

١ - لويس التاسع فى سوريا :

خرج الملك لويس التاسع من دمياط يجر أذيال الخيبة والفشل، وصحبه فى خروجه مائة جندى فقط كانوا هم البقية الباقية من حملته التى وفد بها إلى مصر والتى كانت تضم ثمانين ألف مقاتل .

ولم يتجه لويس إلى وطنه فرنسا بل آثر الذهاب إلى فلسطين ، فقصد إلى مدينة عكا ووصلها فى مايو سنة ١٢٥٠م بعد أن سمح لأخوته ومعظم رحاله بالسفر إلى فرنسا ، وحملهم الرسائل إلى ملوك أوربا يطلب فيها نجدة ومددًا حربيًا عله يستطيع أن يحرز نصر جديدا فى الشام يمسح به وصمة الفشل والهزيمة التى لحقت به فى مصر .

وقد أقام لويس فى فلسطين أربع سنوات ، وهو السنوات الأولى من حكم الدولة الجديدة فى مصر والشام وهى دولة المماليك ، وكان النزاع وقتذاك على أشده بين المماليك والأيوبيين، وقد أراد زعيم الأيوبيين الملك الناصر صاحب حلب أن يستغل فرصة وجود الملك المعز أيبك، ولكن لويس كان قد اختار الإقامة فى فلسطين لتحقيق أهداف أخرى كان فى مقدمتها أن يعمل على تنفيذ المعاهدة المعقودة بينه وبين المماليك، وأن يحاول أن يصلح فى هدوء ما أحدثته هزيمة المنصورة، ولم يكن لويس قد نسى بعد مرارة ما ذاقه على أيدى المماليك، ولهذا لم يكن على استعداد أن يشتبك معهم فى معركة جديدة .

وهو إلى هذا كله كان يعلم أنه قد ترك فى مصر عشرة آلاف أسير من رجاله ، وأن حياة هؤلاء الأسرى ستكون لا محالة معرضة للخطر لو أنه دخل فى معركة جديدة مع المماليك. لهذا آثر لويس أن يقف مؤقتًا على الحياد بين الأمويين والمماليك، بل وحاول أن يستغل الموقف لتعديل شروط المعاهدة المعقودة بينه وبين المماليك .

وكللت جهوده بالنجاح ، واستجاب المعز أيبك لرغباته، ووافق فى مايو سنة ١٢٥٢م على إطلاق سراح عدد من كبار قواده الأسرى ، وعلى التنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس، وذلك مقابل أن يتعهد الملك لويس بالتعاون مع السلطان أيبك على منه الملك الناصر صاحب حلب من التقدم نحو مصر أو الإغارة عليها .

وفى هذا الوقت كان الخطر المغزلى يقترب بخطوات سريعة نحو الخلافة العباسية، وبدأ الخليفة المستعصم يدرك أمام هذا الخطر الداهم أنه لابد من توحيد القوى الإسلامية المجاورة لتقف إلى جانبه فى محنته المقبلة ، ولهذا أرسل فى سنة ١٢٥٣م رسولاً من قبله يسعى لعقد الصلح بين الملك الناصر صاحب حلب والمعز أيبك سلطان مصر، وقد وفق الرسول فى مهمته ، وعقد الصلح بين الملكين فى أبريل سنة ١٢٥٣م، وبذلك خابت آمال الملك لويس فى أن يجد فرصة لتحقيق آماله الصليبية أو لاستعادة بيت المقدس .

وأخيرًا وصلته الأخبار من فرنسا تحمل نبأ وفاة والدته الملكة بلانش، وكانت سيدة حازمة ماهرة استطاعت أن تدير شئون الحكم فى فرنسا كوصية على العرش طيلة مدة غياب ابنها الملك لويس فى الشرق، ولهذا رأى لويس أن من واجبه الإسراع بالعودة إلى وطنه وخاصة أنه كان قد فقد الأمل فى تحقيق أى هدف من أهدافه فى فلسطين ، وفى وصول أى نجدة حربية من أوربا، ولكنه سعى قبل سفره حتى وفق لعقد صلح مع الملك الناصر صاحب حلب لمدة ثلاث سنوات تبدأ من فبراير ١٢٥٤م، ولم يكن فى حاجة لعقد صلح جديد مع سلطان مصر، لأن الصلح القديم كان لا يزال قائمًا ومدته عشر سنوات تبدأ من تاريخ عقده وهو سنة ١٢٥١م .

وأبحر الملك لويس من عكا فى أبريل سنة ١٢٥٤، ووصل إلى فرنسا فى يوليو من نفس السنة .

٢ - بيبرس يواجه الخطرين الصليبى والمغولى :

وتولى بيبرس عرش مصر بعد مقتل قطز ، وبعد توليته اتضح للرأى العام وللعالم الخارجى أن دولة المماليك قد مرت بالتجربة بنجاح ، وأنها قد استقرت على قواعد ثابتة ، أنها تستطيع أن تبقى فى الحكم، وخاصة بعد الانتصار الباهر الذى أحرزته فى عين جالوت ضد أكبر قوة مقاتلة فى الشرق وقتذاك وهى المغول .

وبدأ بيبرس يعيد النظر فى سياسة المهادنة التى اتبعها المماليك قبله نحو الصليبيين، ورأى أنها سياسة ألجأت إليها الضرورة حتى لا يضطروا لمواجهة الخطرين المغولى والصليبى فى وقت واحد ، ولم تعد به الآن حاجة إلى مهادنة الصليبيين بعد أن بعد الخطر المغولى عن مصر والشام، وخاصة أنه كان على علم بالمحاولات التى بذلها المغول والصليبيون للتحالف معا ضد القوى الإسلامية الأيوبية ثم المملوكية، وقد سبق للبابا إنوسنت الرابع أن أرسل رسلا من قبله إلى المغول لإقناعهم بعقد حلف صليبى مغولى للقضاء على المسلمين فى الشام ومصر . وسار الملك لويس التاسع على نفس النهج، وجرت بينه وبين المغول اتصالات لتحقيق هذا الهدف، وأرسل الخان جغطاى بن جنكيز خان اثنين من رجاله إلى الملك لويس أثناء مقامه فى جزيرة قبرص قبل إبحاره إلى ديماط يعرضان عليه التحالف ضد المسلمين، ورحب لويس بهذا العرض. غير أن

الهزيمة الكبرى التى منى بها لويس فى مصر وضعت حدًا لمشروع التحالف الصليبى المغولى، وعلى العكس من هذا استطاع السلطان قطز أن يعقد صلحًا مع الصليبيين كان من أهم العوامل التى ساعدته عى الانتصار على المغول فى عين جالوت .

ولهذا نجد أن بيبرس قد رسم لنفسه بمجرد التغلب على مشاكله الداخلية -- خطى تهدف إلى معالجة مشكلتى العباسيين والمغول فى وقت واحد حتى لا يدع فرصة للتقرب أو التحالف بين الفريقين .وقد بدأ بيبرس بمواجهة الخطر الصليبى أولاً ، وفى هذا دليل واضح على مبلغ إحساسه بخطر الصليبيين وبخطر ما قد يحدث نتيجة لتحالفهم مع المغول، ولهذا اتجه أول ما اتجه إلى مركز الدعوة لهذا الحلف المغولى، أى إلى أنطاكية، فإن صاحبها بوهمند السادس كان ممن أيدوا سياسة التحالف مع المغول منذ أيام عين جالوت .

ولكن بيبرس لم يقدم على مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل على ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة .

كانت هذه الخطة تتلخص فى عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين :

أولهما - أن يمنع هذه القوى أن ترسل أو تسمح بمرور أى مدد إلى الصليبيين .

وثانيهما - أن يستعين بهذه القوى لمنع أى تحالف بين المغول والصليبيين، ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت فى التقدم لمساعدة الصليبيين .

٣ - مهارة بيبرس الدبلوماسية :

ووفق بيبرس فى تنفيذ خطته وعقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع ميخائيل باليولوجس ، إمبراطور الدولة البيزنطية -، ومع منفرد هوهنشتاوفن - إمبراطور الدولة الرومانية الغربية وملك صقلية -، ومع الجمهوريات الإيطالية، ومع بركة خان زعيم مغول القنجاق، ومع سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى .

أما الإمبراطورية البيزنطية فقد كانت لها سياسة تقليدية نحو الصليبيين منذ أن عاث جنود الحملة الصليبية الأولى فسادًا فى أراضيها أثناء مرورهم بها وهى سياسة مبنية على العداء والترقب .

أما بيت هوهنستاوفن فقد كانت تربط بينه وبين حكام مصر الأيوبيين صداقة طويلة مستمرة منذ أيام فردريك الثانى والملك الكامل محمد. وقد وضعت المعاهدة التى عقدت بينهما حدًا للحملة الصليبية السادسة، وقد تجددت هذه الصداقة أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان

فردريك هو الذى أرسل رسولاً من قبله متخفيًا فى زى تاجر ليحمل إلى الصالح أنباء حملة لويس التاسع وإبحارها قاصدة مصر .

وقد سار منفرد بن فردريك على نفس السياسة فرحب بسفير بيبرس إليه، ولم يكن هذا السفير إلا المؤرخ المعروف جمال الدين بن واصل مؤلف كتاب (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) .

وأما بركة خان فقد كان - وهو الملك المسلم - الصديق الحميم لبيبرس ، كما كان العدو اللدود لمغول فارس، وفى إمكانه أن يقف لهم بالمرصاد فيمنعهم من التقدم لمساعدة الصليبيين لو حاولوا ذلك .

٤ - سفارة ابن واصل إلى الإمبراطور منفرد :

ودراستنا للسفارة التى أرسلها بيبرس إلى الإمبراطور منفرد بن فردريك الثانى - إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وصاحب الصقليتين - تلقى أضواء جديدة واضحة على ما كان يمتاز به السلطان الملك الظاهر بيبرس من كفاءة سياسية ومقدرة دبلوماسية، وتشرح الأسس الهامة التى أقام عليها بيبرس سياسته الخارجية .

أرسل بيبرس فى أوائل عهده سفارة إلى الإمبراطور منفرد بن فردريك الثانى، وكان على رأس هذه السفارة جمال الدين بن واصل مؤرخ الدولة الأيوبية، ومن العجيب أن الأستاذ كاهن Cahen ذكر فى كتابه (سوريا الشمالية فى عصر الحروب الصليبية) أن ابن واصل أرسل فى سفارته هذه فى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) دون أن يعين المرجع الذى أخذ عنه، وإن كان أبو الفدا قد ذكر فى كتابه (المختصر فى أخبار البشر) أنه أرسل إلى منفرد فى سنة ٦٥٩هـ، وأما ابن واصل نفسه فقد حدد الشهر والسنة التى سافر فيها، فقال إنه سافر فى شهر رمضان سنة ٦٥٩هـ (أغسطس سنة ١٢٦٠م)، غير أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى غرض هذه السفارة أو إلى أعضائها الذين صحبوه، إو إلى المدة التى قضاها فى إيطاليا، بل اكتفى بأن عين المدينة التى أقام بها وهى مدينة (برليتا Barletta) إحدى مدن جنوبى إيطاليا، وذكر أنه اجتمع مرارًا بالإمبراطور منفرد، ووصفه بأنه كان (متميزًا محبًا للعلوم العقلية) .

وأشار ابن واصل إلى أهمية مدينة (لوجارة Lucora) معسكر المسلمين فى قلب جنوبى إيطاليا، قال : (توجهت رسولاً إلى منفرد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة ، فأقمت عنده مكرمًا بمدينة من مدائن انبوليه (Naples) فى البر الطويل المتصل ببر الأندلس يقال لها (برلت Barletta) ، واجتمعت به مرارًا، فوجدته متميزًا محبًا للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس فى الهندسة، وبالقرب من البلد التى كنت بها نازلاً مدينة تسمى (لوجارة) (Lucera) أهلها كهلم مسلمون من

أهل جزيرة صقلية. وتقام الجمعة فيها . ويعلن فيها بشعائر الإسلام . وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور، وكان قد شرع فى بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن فى معسكره بالآذان والصلاة) .

بهذه الكلمات القليلة أرخ جمال الدين بن واصل لسفارته إلى منفرد، فأهمل الإشارة إلى أمور كثيرة كان يعنينا أن نعرفها ، غير أن ما قاله - رغم اختصاره - هام جدًا ، وذلك لأنه يتضمن حقائق ثابتة عن منفرد، وعن مدينة لوجارة، وعن دار العلم التى كان يزمع منفرد إنشاؤها.

وهذه الحقائق تتفق تمامًا وما ذكره المؤرخون الغربيون ، فقد ذكرت هذه المراجع أن منفرد كان صورة من أبيه من حيث عنايته بالعلوم واشتغاله بها، وذكرت أيضًا أن فردريك الثانى لما تولى حكم الصقليتين عانى كثيرًا من جماعات المسلمين الذين كانوا يعتصمون بمناطق صقلية الجبلية، ويهددون بغاراتهم المتتابعة الأمن والسلام فى الجزيرة، فسعى فردريك حتى نقل هذه الجماعات - وكان عددها يقرب من ١٦٠,٠٠٠ مسلم - إلى الصقلية الشمالية - أى جنوبى إيطاليا -، وخصص لإقامتهم مدينة (لوجارة Lucera) ، وجعلها مستعمرة عسكرية، وبنى بها الحصون والقلاع ، واتخذ من جنود هؤلاء المسلمين مماليك وحرسًا خاصًا به طالما استعان بهم فى حروبه الداخلية وخاصة ضد البابا، وعهد إلى غير الجنود بفلاحة الأرض وزراعتها ، وقنع بأن فرض عليهم نوعين من الضرائب : ضريبة على الأرض terragium نظير تمتعهم باستغلالها، وضريبة على الرؤوس وكان يسميها باسمها العربى: الجزية Jisya نظير تمتعهم بحريتهم الدينية .

فاتخذت هذه الجالية الإسلامية لها قاضيًا خاصًا بها ، ورئيسًا منها هو قائد حاميتها، وفقهاء يفقهون الأفراد فى أمور دينهم، وبنت المساجد، وكانت - كما يقول ابن واصل - (تقام الجمعة فيها، وتعلن فيها شعائر الإسلام) .

وتسمية ابن واصل للجامعة التى كان منفرد يزمع إنشاءها (دار العلم) لها دلالتها عند التأريخ العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وذلك أن إيطاليا كانت من أولى الممالك الأوربية التى أنشئت فيها الجامعات، وأول جامعة أنشئت بها هى جامعة نابلى، أنشأها فردريك الثانى فى سنة ١٢٢٤م (٦٢٢هـ) ، والاسم الذى كان يطلق على الجامعة فى إيطاليا هو Sapienza ، والترجمة الحرفية لهذا اللفظ هى (دار الحكمة أو دار العلم) ، وهو مصطلح عرفه الشرق منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وكانت أعظم وأشهر دار حكمة أو علم عرفها الشرق الإسلامى هى دار الحكمة التى أسسها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى القاهرة فى سنة ٣٩٥هـ ، فنص ابن واصل يحمل الدليل القوى على أن الأوربيين أنشأوا

جامعاتهم فى العصور الوسطى على نمط دور العلم أو الحكمة بالمشرق، بل لقد أطلقوا عليها نفس الاسم الذى كان يطلقه المشارقة على هذا النوع من معاهدهم .

ذكر ابن واصل أن الإمبراطور منفرد كان (متميزًا محبًا للعلوم العقلية) ويبدو أنه كان كأبيه يعرف العربية ويتكلمها، فقد روت المراجع التى ترجمت لابن واصل أنه ألف لمنفرد - أثناء إقامته القصيرة فى صقلية - رسالة فى المنطق سماها (الرسالة الأنبرودية) أو (نخبة الفكر فى المنطق) ، ويبدو كذلك أن منفرد - وقد كان بلاطه عامرًا بعلماء المسلمين - قد أعجب بجمال الدين بن واصل وبثقافته المنوعة ، فكان يدعوه إلى مجالسه الخاصة حيث كانت تدور المناقشات العلمية المختلفة بين الحاضرين، وبديهى أن منفرد وابن واصل كانا يساهمان فى هذه المناقشات بأوفر نصيب .

فقد روى الصفدى فى ترجمته لابن واصل التى أوردها فى كتابه (نكت الهميان فى نكت العميان) . أن الأنبرور قال مرة لجمال الدين بن واصل :

(يا قاضى : أنا عندى ما أسألك عنه ، لا فقه ولا عربية ، وسأله ثلاثين سؤالاً فى علم المناظر، فبات تلك الليلة وصبحه بالجواب عنها) .

وهذه رسالة أخرى فى علم البصريات تضم إلى مؤلفات ابن واصل وإن كان مؤرخوه لم يشيروا إليها عند إحصاء مؤلفاته لأها بقيت عند منفرد بصقلية، ويبعد أن يكون ابن واصل قد احتفظ بنسخة منها لنفسه، فالصفدى يذكر أنه ألفها فى ليلة واحدة، وأنه لم يرجع - عند وضعها - إلى أى كتاب فى هذا الموضوع ، لأنه لم يصحب معه فى هذه الرحلة كتبًا، وإنما كان مرجعه الوحيد معارفه الخاصة المختزنة، فقد قال الصفدى تعقيبًا على الخبر السابق :

(فصلب الأنبرو على وجهه وقال : هكذا يكون قسيس المسلمين، لأن القاضى لم يكن معه كتب فى تلك السفارة ، وإنما أجابه عن ظهر قلب) .

وقد روى الصفدى أيضًا قصة مجلس آخر من المجالس التى جمعت بين منفرد وابن واصل فى إيطاليا ، وخلاصتها أن منفرد أحضر فى هذا المجلس (الأرغل) وأمر فضرب به ، يقصد بهذا أن يستخف ابن واصل بالطرب ليرى مبلغ ما تؤثر فيه الموسيقى، وصدى هذا التأثير فى حركاته وأقواله ، وقد كان ابن واصل عالمًا بالموسيقى، ودرس أصولها النظرية فى الكتب التى قرأها، فقد قال فى مقدمة شرحه لقصيدة ابن الحاجب .

(لأن وزن الشعر أمر طبيعى وأنه يحتاج إليه من أراد أن يشتغل بعلم الموسيقى. قلت: وعلم الموسيقى أحد أنواع العلم الرياضى، وهى: الهندسة، والأرنماطيقة، والهيئة الفلكية، وعلم الموسيقى. ثم الموسيقى فنان، أحدهما علم النغم ، والثانى علم الإيقاع، والنظر فى علم العروض مشاكل للنظر فى علم الإيقاع.. إلخ) .

وابن واصل كان أيضًا عصبى المزاج، سريع التأثر، فقد روى الصفدى أنه كان يحتد فى البحث ويحمر وجهه، ورجل هذا مزاجه لابد أن يستخفه الطرب، وتسرى النشرة فى نفسه إذا سمع اللحن الجميل، ولكن ابن واصل لم ينس فى هذا المجلس أنه عالم دينى وسفير عظيم، فاضطر أن يكبت شعوره وأن يصطنع الوقار، فما تحرك ولا اهتز، وتثبت ، وما أظهر لهم خفة لذلك ولا طربا) .

يقول الصفدى : (إلا أنه لما قام وجدوا تحته نقط دم، يقال إنه بقى يحك كعبيه فى الأرض إلى أن أدماها ، فعظم أمره عند الأنبرو) . والصفدى ينقل كثيرا من أخبار ابن واصل عن تلاميذه، فهو قريب عهد منه، فلابد أن لهذه القصة أساسًا من الصحة، وإن كان يبدو أن الخيال والمبالغة قد عملا عملهما فى صياغتها .

هذه هى قصة سفارة جمال الدين بن واصل إلى الإمبراطور منفرد، جلونا ما اكتنفها من غموض بالقدر الذى أمدتنا به المراجع المختلفة. وفى مقدمتها ابن واصل نفسه، وبقيت ناحية واحدة نرى أنه من الواجب مناقشتها . وهى لم أرسل ابن واصل فى هذه السفارة.. ؟

لم يشر ابن واصل ولم تشر المراجع المعاصرة والمتأخرة إلى أسباب إرسال هذه السفارة، غير أنه يبدو أننا لو استعرضنا أحداث مصر التاريخية فى تلك السنة لأمكننا أن نفترض أسباب لهذه السفارة .

فى سنة ٦٥٨هـ، ولى الظاهر بيبرس عرش مصر ، والظاهر مملوك من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، أى أنه لم يكن فى يوم من الأيام سليل بيت مالك، فليس غريبًا إذن أنه كان يحس أن توليه العرش أمر غير طبيعى ولم تهيأ النفوس فى العالم الإسلام لقبوله بعد .

حقيقة لقد سبقه على عرش مصر منذ موت المعظم نورانشاه أفراد من غير البيت الأيوبى، ولكن أول هؤلاء الأفراد - وهو الملك المعز عز الدين أيبك - لم يكن مملوكًا، بل كان واحدًا من أمراء الصالح نجم الدين، وقد قضى السنوات القليلة التى حكم فيها مصر فى نضال مستمر مع ملوك بنى أيوب بالشام لأنهم اعتبروه مغتصبا للعرش .

وبعد مقتله خلفه على العرش ابنه الصغير الملك المنصور نور الدين على، وقد تولى أتابكيته سيف الدين قطز، غير أن قطز سرعان ما عزل الطفل الصغير وتولى هو عرش مصر فى سنة ٦٥٧هـ ، وكانت حجته فى هذا العزل أنه لابد من وجود ملك كبير على عرش مصر يستطيع أن يحشد الجهود للقضاء على الخطر المغولى الذى كان يهدد شمال الشام فى تلك السنة، وخرج قطز فعلا لملاقاة التتار فى سنة ٦٥٨هـ وانتصر عليهم انتصاره الحاسم فى موقعة عين جالوت، غير أن بيبرس اغتاله أثناء عودته إلى مصر، وخلفه على عرش مصر.

والظاهر بيبرس يعتبر بحق أول سلطان حقيقى من سلاطين المماليك . وكان بيبرس ملكًا طموحًا يريد أن يوطد الأمور لاستقرار عرشه، بل ولإبقاء هذا العرش فى أسرته ، ولم يكن من الممكن أن تثبت أركان هذا العرش إلا إذا اعترف به ملكًا على مصر : ملوك بنى أيوب فى الشام، والمجتمع الإسلامى، وملوك الدول المسيحية ذات الصلات الوثيقة بمصر .

أما الفريق الأول فلم يكن قد بقى منه ملك ذو خطر ، لأن أقواهم وصاحب الصدارة فيهم، وهو الناصر صاحب حلب قد قضى عليه التتار عند إغارتهم على حلب سنة ٦٥٨هـ ، وبقى بعد موته من ملوك بنى أيوب الملك المغيث عمر صاحب الكرك، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماة . وقد دان الأول والثانى بالولاء للظاهر بيبرس منذ اللحظة الأولى . وعندما حاول المغيث أن يتمرد بعد ذلك على بيبرس وأن يتصل بالتتار للاستعانة بهم، خرج إليه بيبرس فى سنة ٦٦١هـ وقبض عليه وقتله . أما المنصور صاحب حماة فقد سار على سياسة أسرته التقليدية ، وهى مصافاة القائم بالأمر فى مصر أيا كانت شخصيته ، يؤيد هذا قوله المشهور : (أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان) .

وأما للفريق الثانى وهو الرأى العام فى المجتمع الإسلامى فقد ضمن بيبرس ولاءه واعترافه به ملكًا باحتضانه أحد أفراد العباسيين الفارين إلى مصر ومبايعته بالخلافة سنة ٦٥٩هـ ، وانابة هذا الخليفة الجديدة (المستنصر) له فى حكم مصر وممتلكاتها باسمه .

بقى الفريق الثالث ، وهو الممالك المسيحية ذات الصلات الوثيقة بمصر، وكان يعنيه العناية كلها أن يوثق صلاته بها لأسباب كثيرة منها : أن الخطر المغولى كان لا يزال قريبًا من شمال الشام، ومنها أنه كان يريد أن يركز جهوده للقضاء نهائيًا على القوة الصليبية فى الشام، ولإبعاد الخطر المغولى كان لابد له من مصادفة إمبراطورية القسطنطينية ، وللتوفر على محاربة الصليبيين كان لابد له من مصادفة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حتى لا يمد صليبى الشام بالمعونة الحربية أو المادية . وإلى هذا كله فإن اعتراف هذين الإمبراطورين بالوضع الجديد فى مصر تقوية لعرش بيبرس .

فنحن إذا فهمنا الأمور المحيطة بالظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩هـ - وهى السنة الأولى من تولية العرش - على هذا الوضع أدركنا فى سهولة لم أرسل فى هذه السنة بالذات سفارتيه إلى إمبراطور القسطنطينية وإلى الإمبراطور منفرد بن فردريك ، وأدركنا بالتالى الغرض من إرساله سفارة بن واصل إلى منفرد ، فهو -- كما نرجح - أرسل هذه السفارة ليخطره بتوليه عرش مصر، وليجدد بينه وبينه صلات الود والصداقة التقليدية بين مصر والصقليتين، وذلك تحقيقًا لأغراضه العامة السالف ذكرها .

هذه هى الناحية الغامضة الهامة التى تكتنف تاريخ هذه السفارة ، قد أوضحناها استنتاجًا . أما النواحى الأخرى التى تحدد الطريق الذى سلكه ابن واصل فى سفره وعودته، وأعضاء السفارة الذين صحبوه، ونتيجة هذه السفارة، فبقيت كلها غامضة .

ولكنا نستطيع أن نرجح أن ابن واصل لم يقم فى إيطاليا طويلاً بل عاد فى أواخر سنة ٦٥٩هـ أو أوائل سنة ٦٦٠هـ على أكثر تقدير، وأن نتيجة السفارة كانت مرضية ومحققة للغرض منها، وأن سفارة أخرى أرسلت من مصر إلى منفرد فى أوائل سنة ٦٦٠هـ وكانت تحمل معها هدايا كثيرة ، منها : زرافة، (وجماعة من أسرى التتار المأخوذين فى نوبة عين جالوت بخيولهم التترية وعدتهم) ، لأن ابن واصل أشار إلى عودة هذه السفارة إلى القاهرة فى شعبان سنة ٦٦٠هـ، قال :

(وفى شعبان من هذه السنة ، وهى سنة ستمائة وستين ، وصل الأمير سيف الدين الكردى، والقاضى أصيل الدين خواجا الذين توجها رسلا إلى الإنبرور ملك الفرنج بهدية من عند السلطان ، وفى جملة الهدية زرافة، وصحبتهما كتابه، فذكروا أن الإنيرور اهتم بها اهتماما عظيما، وتجمل لها تجملا عظيما، وأعرضت عليه الهدية، فأعجبته الزرافة إعجابا عظيما . ورأى من التحف ما أذهله وملأ عينيه، وقرأ عليه كتاب السلطان إحدى عشرة مرة وهو يردده ويتفهمه، وأحسن إلى الرسل غاية الإحسان، وجهز رسولاً وهدية فيما بعد، وكانت هدية لا تحصى ، ولما وصل رسل الظاهر المذكورين كان فى جملتهم نفران من البحرية قد أساء الأدب ، فلما شاهدهما السلطان أمر بتأديبهما لأنه بلغه سوء اعتمادهما، فسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيدين) .

وعقب ابن واصل إلى هذا بقوله : (وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمعتدى ، وحفظ لناموس السلطنة، وإقامة لحرمة المملكة) .

٥ - نضال بيبرس ضد الصليبيين :

كان بيبرس - فى جهاد المستمر ضد الصليبيين - يريد أن يتشبه بصلاح الدين . ولئن كان صلاح الدين قد انتصر انتصاره الحاسم فى (حطين) ثم توج هذا الانتصار باستعادة الإمارة الصليبية الكبرى (بيت المقدس) ، فإن بيبرس كان يعمل دائمًا للقضاء على الإمارتين الباقيتين : إمارة انطاكية وإمارة طرابلس، وتطهير سواحل الشام تطهيرًا تامًا من بقايا الصليبيين .

وقد قضى بيبرس عشر سنوات كاملة (٦٥٩هـ - ٦٦٩ هـ = ١٢٦١م - ١٢٧١م) فى نضاله هذا ضد الصليبيين، فلم تمض سنة من هذه السنوات دون أن يهاجم فيها مدينة من مدنهم أو يخضع حصنًا من حصونهم ، وقد تخللت هذه السنوات فترات قليلة كان يشغل فيها بيبرس

بمحاربة المغول، أو حشيشية الشام ، أو مملكة أرمينية الصغرى ، تلك القوى التى كانت تعوق جهوده الحربية أو تعمل للتحالف مع الصليبيين ضده .

وقد لقى بيبرس فى حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة ، غير أنه كان المنتصر دائمًا، فلم ينهزم قط فى معركة من معاركهم، ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم .

(أ) الاستيلاء على مدينة صفد :

وبدأ بيبرس سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) بمحاصرة عكا .

ولكن أول حملاته القوية كانت هى الحملة التى قادها بنفسه لمهاجمة مدينة قيسارية فى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) فكتب له النصر واستولى على المدينة . وفى السنة التالية قاد جيشًا كبيرًا واتجه إلى قلعة صفد وحاصرها . فلم يمض إلا ثلاثة أسابيع حتى اشتد الضيق بالفرنج وعجزوا عن المقاومة ، فاستسلموا وسقطت القلعة، وأمن بيبرس من بها، وسمح لهم أن يخرجوا سالمين، ويرحلوا إلى عكا بشرط أن لا يصحبوا شيئًا من سلاحهم، ولكنهم نقضوا العهد كعادتهم ، فحملوا معهم أثناء مغادرتهم القلعة أسلحتهم ومتاعهم، بل صحبوا معهم بعض أسرى المسلمين بعد أن ألبسوهم ملابس الصليبيين ، وعلم بيبرس بما فعلوا فغضب غضبة شديدة، وأمر بالقبض على حامية القلعة جميعًا وأن تضرب أعناقهم على تل قريب من صفد .

واستولى بيبرس على مدينة صفد بعد أن خرب قلعتها، وهى مدينة قوية لها أهميتها الحربية. وفى السنة التالية أعاد بناءها، واشترك بنفسه مع العمال فى بنائها، وسجل انتصاره فى نص تاريخى هام رقم على أسوارها .

(ب) سقوط أنطاكية :

وفى سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) غادر بيبرس القاهرة على رأس جيش كبير واتجه نحو الشام، وهدفه إمارة أنطاكية ومدينتها. فاسنولى فى طريقه على عدة مدن أهمها يافا وشقيف أرنون، ثم قصد حماة واتخذها قاعدة لهجومه، فقسم جيشه إلى فرق ثلاث، وتولى هو قيادة إحداها، ثم بدأ الزحف نحو أنطاكية، وظل محاصرًا لها إلى أن عجزت عن المقاومة واستسلمت .

وعقد لبيبرس ألوية النصر ، وعمت الأفراح أركان العالم العربى لاستعادة الإمارة اللاتينية الثالثة أنطاكية، ولم يبق إلا الإمارة الأخيرة وهى إمارة طرابلس .

(جـ) حملة لويس التاسع على تونس :

وفى سنة ١٢٧٠م وصلت الأخبار إلى بيبرس فى الشام تنبىء أن لويس التاسع - ملك فرنسا - يعد حملة صليبية جديدة لمهاجمة الشرق الإسلامى، فأسرع بيبرس بالعودة إلى مصر يترقب

أخبار هذه الحملة، ويعمل على تحصين الثور وترميم أسوارها وإقامة الاستعدادات الحربية. فقد حسب بيبرس أن لويس سيتجه بحملته إلى مصر انتقامًا للهزيمة التى منى بها فى حملته السابقة. والواقع أن الشرق الأدنى الإسلامى كان هدف لويس فى حملته الجديدة، ولكن أخاه شارل دانجو - ملك صقلية - استطاع أن يقنعه بتحويل الحملة إلى هدف آخر هو تونس، وذلك ليتمكن من تحقيق بعض مشروعاته ضد الدولة البيزنطية، وليعمل على تأمين ملكه فى صقلية بالاستيلاء على تونس ولنشر المسيحية فيها.

ووصل لويس بحملته إلى تونس، ولكنه أصيب بالحمى، ومات بعد قليل. وخلفه على قيادة الحملة أخوه شارل، ولكنه عجز عن تحقيق أى نصر، واضطر إلى عقد مفاوضات مع ملك تونس انتهت بالاتفاق على الجلاء، وأن يدفع ملك تونس مبلغًا من المال، أن يحصل الفرنسيون على بعض الامتيازات فى تونس.

(د) المفاوضات مع طرابلس وعكا :

وقد اتجه بيبرس فى سنة ١٢٧١م وبعد أن اطمأن لنتيجة حملة لويس إلى الشام ليستأنف النضال ضد الصليبيين. وبدأ بمهاجمة مدن إمارة طرابلس، وتوالت انتصاراته. وبدأت طرابلس تحس أنها الهدف التالى بعد أنطاكية، فأرسلت إلى بيبرس تطلب المفاوضة والصلح.

واستجاب بيبرس لطلبها، وأرسل وفد لمفاوضة صاحبها، ويقال بأن بيبرس نفسه رافق سفراءه متخفيًا فى زى خادم ليتعرف أثناء مقامه فى مدينة طرابلس على أحوالها وتحصيناتها تمهيدا لحصارها فيما بعد.

وزلزت كذلك مدينة عكا البقية الباقية من إمارة بيت المقدس - وأرسلت تطلب المفاوضة للصلح كذلك، وقدم رسلها إلى دمشق لمفاوضة السلطان، واتفق الطرفان على عقد الصلح بشرط أن تكون عكا مناصفة بين بيبرس والصليبيين، ولكن هذه الاتفاقية حين عرضت على صاحب عكا لم تلق منه قبولاً.

(هـ) محاولة غزو قبرص :

كانت هذه البقايا الصليبية تتلفت حينذاك نحو أوربا تنشد المساعدة علها تستطيع درأ خطر بيبرس، ولم تجد ملبيًا غير ملك جزيرة قبرص هو الثالث لوزنيان الذى كان قد ضم بقايا إمارة بيت المقدس فى عكا إلى ملكه. وقد أرسل بعض المساعدات الحربية إلى الصليبيين فى الشام، كما أرسل بعض قراصنته يعيثون فسادا بسفنهم فى موانى مصر والشام، ولذلك أسرع بيبرس فى سنة ١٢٧٥ بإعداد أسطول من سبع عشرة سفينة، وأرسله لتأديب جزيرة قبرص وملكها. غير أن رياحا عاصفة هبت على الأسطول فحطمته وألقت به على ميناء ليماسول، وقد أرسل

هيو إلى بيبرس رسالة يتباهى فيها بانتصاره على أسطول مصر، فأجابه بيبرس برسالة أخرى هون فيها من قيمة هذا النصر، وأشاد فيها بانتصاراته هو الكثيرة الحاسمة على قوى الصليبيين وحصونهم فى الشام، وفيها يقول: (وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، والاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب.. وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح.. إلخ).

وقد شغل بيبرس خلال السنوات القليلة الباقية من حياته بالنضال ضد المغول الذى انتهى بانتصاره الحاسم عليهم فى سنة ١٢٧٦م ودخوله قيصرية عاصمة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى. وعاد بعد هذا النصر إلى دمشق حيث توفى بها فى سنة ١٢٧٧م.

بيبرس البطل والأسطورة :

وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوى فى نفوس الشعب العربى فى مصر والشام، فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره، وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته، وألف أديب مصرى مجهول (سيرة الظاهر بيبرس)، فكانت ملحمة للبطولة، وظلت قرونًا يتغنى بها الشعراء والقصاص فى المقاهى ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة فى نفوس الشعب.

البـــاب الثـالث

عصر المنصور قلاوون

الفصـــل الأول : أولاد بيبرس وتولية قلاوون العرش.

الفصل الثانى : العلاقات بين المماليك والمغول فى عهد قلاوون.

الفصل الثـالث: العلاقات بين دولة المماليك والصليبيين فى عهدى قلاوون وابنه الأشرف خليل.

الفصل الرابع : إصلاحات ومنشآت قلاوون.

الفصل الأول

أولاد بيبرس

وتولية قلاوون العرش

دولة المماليك ونظام وراثة العرش:

لم يكن المماليك يؤمنون بمبدأ الوراثة. فهم كانوا يؤمنون بالمساواة لأنهم جميعًا نشأوا نشأة واحدة، ولم يل سلاطينهم الأول الملك عن طريق الميراث، بل كانت العلاقات التى تربط بينهم تقوم أساسا على علاقتين: علاقة الأستاذية، وعلاقة الخشداشية أو الزمالة. فولاء الأمير المملوكى كان لأستاذه أولا، ولخشداشه ثانيا.

ومع هذا فقد شذت عن هذه القاعدة أسرة قلاوون وحاولت أن تصطنع نظام الوراثة فى الحكم، وقد نجحت إلى حد كبير فى إقامة هذا النظام، فحكم قلاوون وعدد من أولاده وأحفاده مدة تنيف عن القرن (١٢٧٩م - ١٣٨٢م) حقيقة كان يثور بعض أمراء المماليك ضد عدد من أفراد أسرة قلاوون ويبعدونهم عن الحكم ويلون السلطنة مكانهم، ولكن هؤلاء المبعدين من آل قلاوون كانوا لا يلبثون أن يعودوا إلى العرش.

وقد يرجع السبب فى نجاح أسرة قلاوون فى إقامة نظام الوراثة إلى أن اثنين من سلاطينهم وهما قلاوون وابنه الناصر محمد قد حكما مدة طويلة استطاعا فى أثنائها أن يدعما: بشخصيتيهما القريتين وأعمالهما المجيدة قواعد النظام الوراثى بحيث استطاع أفراد الأسرة رغم صغر سن الكثيرين منهم أن يلوا الحكم فى سلسلة متتابعة إلى نهاية دولة المماليك البحرية.

لقد حاول من قبل كل من أيبك وبيبرس أن يورث ابنه العرش، ولكن التجربتين انتهيتا بالفشل، وقد يرجع هذا إلى أن كلاً من الرجلين شغل بحروبه الكثيرة عن أن يفرغ لتربية ابنه التربية الصالحة التى تؤهله للسلطنة، فكان المنصور على بن المعز أيبك - كما سبق أن أسلفنا - يحيا حياة كلها لهو ولعب، فلم يستطع أن يسمو إلى مستوى الأحداث عندما هدد المغول حدود مصر، واضطر المظفر قطز أن يبعده، وأن يمسك هو بمقاليد الأمور، وأن يتقدم الجيوش لصد العدو المغير.

أولاد بيبرس:

وشبيه بهذا ما حدث بعد موت الظاهر بيبرس.

لقد سعى بيبرس أثناء حياته لتوريث السلطنة لابنه بركة خان، وفى سنة ١٢٦٢م أعلنه وليًا لعهده، وأخذ له الأيمان والمواثيق من كبار أمراء الدولة، ومع هذا كان بيبرس يعتقد أن الملك لن يصفو لابنه - بعد موته - فى يسر وسهولة، وأيقن أن كبار أمراء المماليك لم يبايعوا ولده بولاية العهد إلا رهبة وخوفًا منه، وتوقع أن يقوموا بتدبير المؤامرات بعد وفاته لاغتصاب الملك منه، لهذا لجأ قبيل وفاته فى سنة ١٢٧٥م إلى تزويج ابنه بركة خان من ابنة كبير الأمراء المماليك وقتذاك سيف الدين قلاوون، ليضمن بذلك ولاء هذا الأمير الكبير، وبالتالى ولاء أمراء المماليك الصالحية لابنه.

ومع هذا فإن بيبرس لم يطمئن نفسًا، فقد كان أعرف الناس بأمراء المماليك وأساليبهم ورأيهم فى نظام ولاية العرش، ولهذا ترك لابنه قبل وفاته وصية أوصاه فيها باستعمال العنف ضد كل من يقف فى طريقه، فقال فى وصيته لابنه: «إنك صبى، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى؛ فمن بلغك عنه يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه فى وقته، ولا تعتقله، ولا تستشر أحدا فى هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك».

وتوفى بيبرس سنة ١٢٧٧م، وبايع القضاة والأمراء الملك السعيد بركة خان سلطانًا، ودعى له على المنابر فى مصر والشام، وكان عمره وقتذاك تسعة عشر عامًا، وهى سن كانت تمكنه من تحمل أعباء السلطنة لو أنه احتذى حذو والده، ولكنه كان شابًا مستهترًا يميل لمجالس اللهو والشراب، وقد أدى سلوكه هذا إلى ازدياد نفوذ مماليكه الخاصكية مما أغضب كبار الأمراء الصالحية وفى مقدمتهم صهره قلاوون والأميران سنجر الحلبى وسنقر الأشقر، وتآمروا فما بينهم على عزله، وعزلوه فعلاً فى سنة ١٢٧٩م. أى بعد سنتين من حكمه، وعينوه نائبًا على الكرك تنفيذا لرغبته.

وكان قلاوون ماكرًا فلم يشأ أن يلى السلطنة مباشرة بعد عزل بركة خان عندما عرضها عليه بقية الأمراء، بل قال لهم «أنا ما خلعت الملك السعيد طمعًا فى السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر». والواقع أن قلاوون كان يخشى بأس كبار الأمراء وبأس المماليك الظاهرية، وأعلن زهده فى الملك إلى أن يتمكن من تدبير الأمر وتمهيد الطريق، فرشح الأمير سلامش - الابن الثانى لبيبرس - لتولية العرش، ووافق الأمراء، وعين سلامش، وكان طفلاً صغيرًا فى السابعة من عمره، فعين قلاوون أتابكًا له، كما عين الأمير عز الدين الأفرم نائبًا للسلطنة.

لم يحكم سلامش سوى مائتى يوم استطاع قلاوون فيها أن يعمل على تدعيم مركزه، فاقتنع الأمراء أن يقسموا له يمين الطاعة باعتباره أتابكا للسلطان. واتخذ كل الوسائل التى تجعله

شريكًا فعليًا فى الحكم، فأمر أن يخطب باسمه واسم سلامش معا على المنابر، وأن يضرب اسمه مع اسم السلطان على السكة، فنقشت السكة وعلى أحد وجهيها اسم سلامش وعلى الوجه الآخر اسم قلاوون، كما عمل خلال هذه الأيام على استمالة كبار الأمراء إليه، وتعيين مماليكه وأنصاره فى النيابات والوظائف الكبرى.

عند ذلك فعل قلاوون ما فعله قطز من قبل، فجمع الأمراء وأعلنهم أن الملك لا يصلح مع وجود طفل قاصر على العرش، وقال لهم: «قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل»، فوافقه الأمراء على رأيه، وعزل سلامش، وأبعد إلى الكرك ليكون قريبًا من أخيه بركة. أما خضر الابن الثالث لبيبرس فقد عين نائبًا على حصن الشوبك.

تولية قلاوون العرش:

وعين الأمير قلاوون الألفى (وسمى كذلك لأنه اشترى بألف دينار) سلطانًا فى سنة ١٢٧٩م، ولقب بالملك المنصور.

كان قلاوون - كزميله بيبرس - واحدًا من المماليك البحرية الصالحية، وقد أسهم فى الأحداث التى صاحبت قيام دولة المماليك، فخرج من مصر مع المماليك البحرية الذين رحلوا إلى الشام عندما اشتدت وطأة عز الدين أيبك على البحرية بعد مقتل أقطاى، ثم عاد إلى مصر مع بيبرس ليقدم المعونة إلى قطز عند إعداد جيشه لمقاتلة التتار. وكانت له جهود محمودة فى حروب المماليك ضد المغول فى عهد بيبرس.

ثورة سنقر الأشقر:

ورغم كل هذه المآثر، ورغم كل الجهود التى بذلها قلاوون لتمهيد الطريق قبل أن يلى السلطنة. فإن الملك لم يصف له بمجرد توليه العرش، بل قام بعض الأمراء بمحاولات لإقصائه، فقد اعتقد كبار أمراء الصالحية أن لهم أمجادًا حربية لا تقل عن أمجاد قلاوون، وأن لهم مثله الحق فى تولية السلطنة، كما غضب الأمراء الظاهرية لعزل بركة وسلامش ابنى أستاذهم.

من هؤلاء الثائرين الأمير سنقر الأشقر نائب الشام. وقد رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون. وأعلن نفسه سلطانًا على الشام. وتلقب بالملك الكامل. وخطب له على منبر الجامع الأموى بدمشق.

أدرك قلاوون خطورة هذا الموقف. وخاصة بعدما علم أن خضرا وسلامش ابنى بيبرس قد انضما إلى سنقر - وكان بركة قد توفى - لهذا آثر أن يستعمل اللين والسياسة، فأرسل إلى سنقر يعاتبه ويستميله ويعده الوعود الطيبة. ولكن سنقر أصر على موقفه. فاضطر قلاوون إلى استعمال

العنف، فأرسل فى سنة ١٢٨٠م حملة إلى الشام استطاعت أن تهزم أعوان سنقر عند مدينة غزة.

عند ذلك اتصل سنقر بأباقا - خان مغول فارس - وحرضه على المسير لغزو الشام، وكان رد قلاوون على هذه المحاولة أن خرج بنفسه إلى الشام، فأدرك سنقر أن لا فائدة من المقاومة، وأرسل إلى قلاوون يطلب الصلح بشروط خاصة قبلها قلاوون. وفى سنة ١٢٨٧م عاد سنقر إلى القاهرة، فعفا عنه قلاوون وأكرمه. وبإخماد هذه الفتنة زالت المتاعب الداخلية، وبدأ قلاوون يركز جهوده لاستئناف الجهاد ضد العدوين التقليديين: الصليبيين والمغول.

الفصل الثانى

العلاقات بين المماليك والمغول

فى عهد قلاوون

انتهز مغول فارس فرصة الاضطرابات التى أصابت مصر بعد موت بيبرس والفتنة التى قامت بعد تولية قلاوون وبدأوا يهددون حدود الدولة المملوكية، لهذا رأى قلاوون أنه لا يستطيع مجابهة الصليبيين والمغول فى وقت واحد، وآثر أن يبدأ بالمغول أولاً، ولهذا جدد الهدنة التى كان بيبرس قد عقدها مع الصليبيين، وليضمن عدم تحالفهم مع المغول أو استنجادهم بقوى أوربية سار على نهج سلفه بيبرس فعقد عدة معاهدات واتفاقيات مع مغول القفجاق، وإمبراطور بيزنطة، وصقلية، وقشتالة، وجمهورية جنوة.

وركز جهوده لمقاتلة المغول، فلم يكد يعلم أنهم وصلوا بجيوشهم إلى قرب حلب حتى أرسل فى سنة ١٢٨٠م حملة استطاعت أن تستولى على بعض المدن المحيطة بحلب، فاضطر المغول إلى الانسحاب محملين بالأسلاب وفى السنة التالية ١٢٨١م أعاد أباقا الهجوم على الشام ووصل بجيشه إلى حماة، فخرجت جيوش قلاوون، وتقابل الجيشان عند حمص، وانتصر الجيش المملوكى، وهزم المغول هزيمة منكرة، وفر أباقا إلى بغداد حيث توفى بعد قليل فى سنة ١٢٨٢م.

وخلف أباقا أخوه تكودار، وكان يدين بالمسيحية، فأعلن إسلامه وسمى نفسه أحمد، وفى عهده بدأت العلاقات تتحسن بين دولة المماليك ودولة مغول فارس، فقد أصبح الإسلام يجمع بين الدولتين والملكين، لهذا بدأ تكودار أحمد بإرسال رسالة إلى السلطان قلاوون أعلن فيها عن رغبته فى خدمة الإسلام وحقن دماء المسلمين وإقامة العلاقات الطيبة بينه وبين إخوانه وجيرانه المسلمين، «فقد وجب التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريق المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباقرة، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان»، ورد قلاوون على تكودار أحمد برسالة رحب فيها بدعوته، وأعلن فيها استعداده للتعاون على خدمة الإسلام والمسلمين.

غير أن فترة الصفاء هذه لم تعمر طويلاً، فإن اعتناق تكودار الإسلام أثارت غضب أمراء المغول وقوادهم، فثار ضده ابن أخيه أرغون ونجح فى قتله، وولى العرش مكانه فى سنة ١٢٨٤م.

واضطهد أرغون المسلمين فى مملكته وأبعدهم عن مناصب الدولة، وعادت العلاقات بين مغول فارس والمماليك إلى أسوأ مما كانت عليه. وسيقوم بعبء مناضلة المغول أبناء قلاوون، وخاصة خليل والناصر محمد.

أما العلاقة بين قلاوون ومغول القبيلة الذهبية فقد استمرت على ما كانت عليه من المحبة والمودة وتبادل السفارات والهدايا، وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بين الدولتين فى عهد قلاوون أربع سفارات. وكانت الأولى فى سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠م) من قلاوون إلى منكوتمر، والثانية فى سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣م) من مانجو خان إلى قلاوون، والثالثة فى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤م) من قلاوون إلى مانجو، والأخيرة فى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) من مانجو إلى قلاوون.

الفصل الثالث

العلاقات بين دولة المماليك والصليبيين

فى عهد قلاوون وابنه الأشرف خليل

تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل على أيدى أبطال الجهاد المسلمين:

- فسقطت إمارة الرها على يد عماد الدين زنكى.
- وسقطت إمارة بيت المقدس على يد صلاح الدين.
- وسقطت إمارة إنطاكية على يد الظاهر بيبرس.

ولم تبق إلا الإمارة الرابعة، وهى إمارة طرابلس التى كان يحكمها أمراء النورمان، وبقيت إلى جانبها بعض فلول الصليبيين فى مدن أخرى متناثرة، وهى:

- بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا.
- حصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية.
- طرسوس ويحكمها فرسان الداوية.

وسيكون لقلاوون وابنه الأشرف خليل شرف القضاء على هذه البقايا الصليبية جميعًا.

وقد ذكر من قبل أن قلاوون بدأ فور توليه العرش بعقد هدنة بينه وبين الصليبيين. ولم يكد ينتهى من نضاله ضد المغول ويجبرهم على مغادرة أرض الشام والتقهقر إلى ملكهم حتى بدأ يفرغ للصليبيين.

سقوط طرابلس الإمارة الرابعة:

وكان هجومه الأول على حصن المرقب فى سنة ١٢٨٥م، وهو حصن من أقوى حصونهم. وبعد حصار دام ثمانية وثمانين يومًا استسلم أصحاب الحصن من الفرسان الاسبتارية، واتفق على أن تجلو الحامية عن الحصن ويسمح لها بالرحيل إلى عكا.

هذا الهجوم المفاجئ على حصن المرقب، وهذا الانتصار السريع على حاميته أنزلا الرعب فى أفئدة أصحاب الحصون والمدن الصليبية الباقية، فسارع أمير طرابلس بوهمند السابع لمسالمة قلاوون. وكذلك فعلت مرجريت أميرة صور فاشترت الصلح من قلاوون بشروط مهينة، وحذا حذوها ملك أرمينية الصغرى، فاشترى الصلح بجزية سنوية وتعهد فوق ذلك بإخلاء جميع بلده من أسرى المسلمين.

ولم تمض ثلاث سنوات حتى تلقى قلاوون خطابًا من نائبه فى الشام ينبئه فيه أن فرنج طرابلس قد نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين برغم تعهدهم فى اتفاقيات الهدنة السابقة ألا يتعرضوا لتاجر أو يقطعوا الطريق على مسافر.

وبدأ قلاوون يستعد للزحف على طرابلس، وخرج من مصر على رأس جيش ضخم حتى وصل إلى طرابلس، فحاصرها تسعة وثلاثين يومًا، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولى عليها قلاوون فى أبريل سنة ١٢٨٩م.

سقوط عكا آخر معاقل الصليبيين فى الشام:

سقطت طرابلس آخر الإمارات الأربع على يد قلاوون، ولم يبق إلا عكا، البقية الباقية من إمارة بيت المقدس، وقد لجأ إليها وتحصن بها كل الصليبيين الذين فروا من الإمارات الأخرى، فكأنهم بذلك كانوا يعيدون سيرة أسلافهم من الصليبيين الذين فروا أمام صلاح الدين بعد انتصاراته المتلاحقة فى حطين وغيرها من المواقع التالية وتجمعوا فى مدينة صور.

وسعى هؤلاء إلى حتفهم بأرجلهم، واستعجلوا نهايتهم بانتهاك بعضهم حرمة المسلمين الذين كانوا يعيشون فى أمان بالقرب من عكا بمقتضى معاهدة معقودة بين السلطان والصليبيين، وقتلهم جماعة من تجار المسلمين فى شعبان سنة ٦٨٩ هـ (أغسطس ١٢٩٠م) فرأى قلاوون أن لا مناص من العمل للإجهاز عليهم والاستيلاء على مدينتهم.

وبدأ قلاوون يعد العدة للزحف على عكا، غير أنه توفى فى ذى القعدة من السنة نفسها.

فأخذ ابنه الأشرف خليل على عاتقه إتمام المشروع، وبدأ يستعد لهذه المعركة الحاسمة، ويجمع الجيوش والعتاد والأسلحة من كل مكان فى مصر والشام.

ونودى فى الجامع الأموى بدمشق بالاستعداد لغزو عكا وتطهير الشام نهائيًا من الصليبيين، واشترك الأهالى مع الجند فى جر المجانيق.

وخرج الأمير حسام الدين لاجين نائب الشام بجيشه من دمشق.

وخرج الملك المظفر بجيشه من حماة.

وخرج الأمير سيف الدين بلبان بجيشه من طرابلس.

وخرج الأمير بيبرس الدوادار بجيشه من الكرك.

وفى القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينيًا فى القبة المنصورية، دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب، وضج المجتمعون بالدعاء إلى الله أن يكتب النصر للسلطان، ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة.

واجتمعت هذه الجحافل الزاحفة من كل مكان عند أبواب عكا فى ربيع سنة ١٢٩١م ومعها العتاد والسلاح ومدفعية ضخمة تتكون من اثنين وتسعين منجنيقا.

واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يومًا، وأحس فرنج عكا بالضيق الشديد وعجزوا عن المقاومة فاستسلموا، وسقطت عكا فى أيدى العرب بعد أن لبثت فى أيدى الصليبيين مائة عام كاملة.

وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر، فسقطت صور، ثم سقطت صيدا، وتبعتهما بيروت وعثليث وأنطرطوس.

وعاد الأشرف خليل إلى عاصمة ملكه القاهرة، فاحتفلت المدينة المجيدة باستقباله احتفالاً باهرًا، وأقيمت الزينات ورفعت الأعلام فى كل مكان، ودخل السلطان المدينة وفى ركابه عدد كبير من أسرى الفرنج المقيدين فى الأصفاد، والجنود المنتصرون يحملون أعلام الأعداء منكسة ورؤوس القتلى على أسنة الرماح.

وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوربى، وطرد من عكا آخر جندى صليبى بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير، بدأه عماد الدين زنكى، وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير: نور الدين محمود، وصلاح الدين، وبيبرس، وقلاوون. ثم كان التطهير على يد الأشرف خليل بن قلاوون.

الفصل الرابع

إصلاحات ومنشآت قلاوون

لم تطل مدة حكم السلطان قلاوون ، فقد حكم أحد عشر عاما (٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ = ١٢٧٩م - ١٢٩٠م) ومع هذا فقد أثبت جدارة ممتازة فى معالجة مشاكله الخارجية، واستطاع أن يتابع سياسة سلفه بيبرس، وقاد الجيش المقاتلة العدوين التقليديين : المغول والصليبيين، وانتصر على المغول فى حمص واسترد طرابلس من الصليبيين.

ولم تشغله هذه الجهود الحربية عن الاهتمام بأمور البلاد الداخلية، فقد قام بعدة إصلاحات، وأقام فى القاهرة منشآت عمرانية كثيرة. أما إصلاحاته فقد كانت منصبة كلها على الجيش باعتباره الأداة الفعالة للدفاع عن الدولة، فعنى بتنظيمه، وضم إليه طائفة جديدة من الجند معظمهم من الجراكسة، وأسكنهم أبراجًا جديدة فى القلعة، ولذا سموا بالبرجية أو الجراكسة، واستطاع هؤلاء البرجية أن يكونوا وحدة متماسكة متعاونة كان لها أثرها فى توجيه الأحداث التاريخية بعد وفاة قلاوون إلى نهاية دولة المماليك البحرية حيث استطاعوا أن يستولوا على السلطنة ويكونوا دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية .

ومن أهم المنشآت والمبانى التى أقامها قلاوون فى القاهرة القبة العظيمة التى دفن فيها، والمدرسة، والبيمارستان، ولا زالت هذه المبانى الفخمة الجميلة موجودة حتى الآن فى شارع النحاسين بالقاهرة .

ولم يكن بيمارستان قلاوون أول مؤسسة علاجية عرفتها القاهرة بل سبقته مؤسسات مشابهة، وأول بيمارستان بنى فى مصر الإسلامية أنشأه أحمد بن طولون فى مدينة الفسطاط .

ثم أنشأ الفاطميون فى القاهرة خزانة الأشربة لصرف الأدوية للمرضى والكشف عليها، وقد أحالها صلاح الدين إلى بيمارستان، وذكر الرحالة ابن جبير أنه رأى بمصر ثلاث بيمارستان من إنشاء صلاح الدين : الأول بالإسكندرية وكان ملحقًا بالمدرسة الجامعة التى بناها صلاح الدين هناك، والثانى بمدينة القاهرة، والثالث بمدينة مصر (الفسطاط) .

أما البيمارستان الذى أنشأه قلاوون ، والذى لا زالت بقاياه تعرف حتى اليوم باسم مستشفى قلاوون . فقد كان أعجوبة فى زمنه حتى لقد قال عنه الرحالة ابن بطوطة : (يعجز الواصف عن محاسنه، فقد كان مقسمًا إلى أربعة أقسام متخصصة : قسم للحميات، وقسم للرمد، وقسم للجراحة، وقسم لأمراض النساء، وخصص لكل مريض فراش خاص به، كل ما يحتاجه من

(التخوت والطراريح والمخدات واللحف والملاءات). وألحق بالمستشفى عدد من الأطباء المتخصيين للإشراف على علاج المرضى، وعدد من الصيادلة لتركيب الأدوية، وذلك بالإضافة إلى الفراشين والقراشات الذين كانوا يقومون على خدمة المرضى وغسل ثيابهم وتنظيف المستشفى، وألحق بالمستشفى كذلك مطبخ لإعداد الطعام للمرضى.

ولم يقصر العلاج على طبقة معينة ، بل وقفه السلطان على (الملك والمملوك والكبير والصغير والحر والعبد) ، ولم يكن يسمح للمريض بمغادرة المستشفى إلا بعد أن يتم شفاؤه ، وعند خروجه كان يصرف له كسوة وتقدم له معونة مالية[1] .

وامتدت خدمات المستشفى إلى المرضى في منازلهم، فكان يرتب لهم كل ما يحتاجون إليه من أغذية وأشربة وأدوية، كما كان يشرف على ذوى الأمراض الخفيفة الذين يترددن عليه للكشف عليهم أو لطلب الدواء، أى أنه كان به قسم يشبه ما نسميه اليوم بالعيادة الخارجية .

---

(١) انظر وصف البيمارستان في : النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ .

الباب الرابع

عصر الناصر محمد بن قلاوون

الفصل الأول : الأشرف خليل بن قلاوون .

الفصل الثانى : الناصر محمد سلطانًا .

١ - السلطنة الأولى للناصر محمد .

٢ - السلطان كتبغا .

٣ - السلطان لاجين .

٤ - السلطنة الثانية للناصر محمد .

٥ - سلطنة بيبرس الجاشنكير .

٦ - السلطنة الثالثة للناصر محمد .

الفصل الثالث : إصلاحات الناصر محمد ومنشآته .

الفصل الرابع : علاقات مصر الخارجية فى عهد الناصر محمد .

الفصل الأول

الأشرف خليل بن قلاوون

وقد حاول قلاوون أن يورث العرش لأبنائه ، فأوصى بولاية العهد لأكبر أبنائه وأحبهم إليه علاء الدين على، وأخذ له الإيمان من كبار الأمراء، وقرىء التقليد بتوليته العهد فى قلعة الجبل ، غير أن هذا الأمير توفى بعد قليل، وتردد القول أن أخاه خليلاً دس له السم لتكون ولاية العهد له، وقضى قلاوون بقية حياته حزينًا على ولده. ولم تكن له رغبة فى التوصية بولاية العهد لابنه خليل، فقد كان فى رأيه لا يصلح للملك لقسوته وسوء أخلاقه. وكتب تقليد بولاية العهد لخليل، غير أن قلاوون توفى فى سنة ١٢٩٠م قبل أن يوقع عليه، ويقال إنه كان يتريث ليوصى لابنه الصغير محمد الذى أنجبه من زوجة مغولية .

وكان قلاوون قد أناب ابن خليلاً عنه فى الحكم عندما خرج إلى عكا فى السنة التى توفى فيها، ولهذا أقام خليل نفسه سلطانًا، واضطر الأمراء إلى الاعتراف به، وفى حفلة تنصيبه استدعى صاحب ديوان الإنشاء محيى الدين بن عبد الظاهر وسأله عن التقليد بولايته، فأحضره إليه، فوجده خلوا من توقيع أبيه، فقال للحاضرين : (إن السلطان امتنع أن يعطينى فأعطانى الله) ، وألقى بورقة التقليد على الأرض .

وكان كبار الأمراء عندما عرفوا كره قلاوون لخليل يسيئون معاملته ويثيرون والده دائمًا عليه، ولهذا لم يكد يلى السلطنة حتى راح ينتقم لنفسه ويضطهد أمراء أبيه وأعوانه، فبدأ بالقبض على الأمير طرنطاى نائب السلطنة وقتله وصادر أملاكه، ثم عزل الأمير سنجر الشجاعى عن الوزارة، وولى مكانه أميرًا من أمرائه هو محمد بن السلعوس .

وكثرت حوادث القتل والقبض والمصادرة بتحريض وتشجيع من ابن السلعوس حتى عم الخوف وانتشر الرعب بين كبار الأمراء، ولم يعدأحد منهم يأمن على نفسه .

وبدأت المؤامرات المملوكية التقليدية ، وكان على رأس المؤتمر بن الأمير بيدر نائب السلطنة، واشترك معهم نفر من الأمراء الناقمين منهم: لاجين المنصورى، وقراسنقر، وبهادر المنصورى، وانتهز هؤلاء الأمراء فرصة خروج السلطان خليل للصيد فى مديرية البيحرة عند كوم تروجة (بالقرب من أبى المطامير الحالية) وتبعوه إلى هناك وانقضوا عليه فقتلوه فى ديسمبر سنة ١٢٩٣م ، وبقيت جثة خليل ملقاة فى الصحراء أيامًا إلى أن نقلها والى تروجة إلى القاهرة حيث دفنت بالمدرسة التى أنشأها لنفسه بالقرب من ضريح السيدة نفيسة .

ووقع اختيار المتآمرين على بيدرا ليكون سلطانًا ولقبوه بالملك الأوحد، ولكن لم تكد أخبار مقتل السلطان تصل إلى القاهرة حتى أسرع الأمير كتبغًا بالخروج من القاهرة لمطاردة الجناة، وتمكن فعلا من قتل بيدرا، ثم عاد إلى القاهرة .

ونشأت من جديد مشكلة اختيار السلطان الجديد ، وقامت المنازعات بين كتبغا وسنجر الشجاعي ولم يستطع واحد منهما الغلبة على زميله ، وانتهى الأمر بين الأمراء على اختيار الابن الأصغر لقلاوون (محمد)، ولم يكن اتفاقهم عن إيمان بمبدأ الوراثة، فالمماليك - كما سبق أن ذكرنا - لم يكونوا يؤمنون بهذا النظام من نظم الحكم ، ولكنه كان اتفاقًا مؤقتًا إلى أن ينجلى الموقف ويدبر كل أمير أمره ويجمع أعوانه، ثم يكون الفوز للأقوى .

ولم يكن من الصعب حينذاك على الفائز بالسلطنة أن ينحى عنها هذا السلطان الطفل، غير أن الناصر محمدًا خيب ظن الأمراء فقد حكم بعد ذلك سنين طويلة، حقيقة قد عزل عن السلطنة مرتين، ولكنه كان يعود إلى العرش أقوى مما كان، واستطاع أن يلى السلطنة ثلاث مرات، وأن يقوم بأعمال كثيرة مجيدة خلال مدد حكمه الطويلة، وكان لشخصيته القوية أثر واضح فى تدعيم نظام الوراثة فى بيت قلاوون .

الفصل الثانى

الناصر محمد بن قلاوون سلطانًا

١ - السلطنة الأولى للناصر محمد : (٦٩٣هـ - ٦٩٤ هـ = ١٢٩٣م - ١٢٩٤ م)

كان محمد بن قلاوون فى التاسعة من عمره حين اختير لتولى السلطنة فى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م)، ولم تدم سلطنته الأولى غير سنة واحدة، ولم يكن له فى خلالها شىء من النفوذ الفعلى لصغر سنة، وإنما استأثر بالسلطان الفعلى عدد من كبار الأمراء فى مقدمتهم الأميران كتبغا نائب السلطنة، وسنجر الشجاعى الوزير، وركزت الجهود فى هذه السنة لتتبع قتلة السلطان خليل، ثم قامت المنافسات الشديدة بين الأميرين كتبغا وسنجر، وانتهت بالتجاء سنجر إلى القلعة ومحاصرة كتبغا له إلى أن تمكن من القبض عليه وقتله.

ووجد كتبغا أن الأحوال لم تهيأ بعد لتوليه السلطنة. فتظاهر بولائه للناصر وأسرة قلاوون، وللتعبير عن ولائه هذا قال لأم الملك الناصر - بعد قتل سنجر: - «والله لوبقى من أولاد أستاذنا (المنصور قلاوون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها».

واستصدر كتبغا بعد ذلك من الملك الناصر أمرا بالعفو عن الأميرين لاجين وقرا سنقر (وكانا قد اشتركا مع بيدرا فى قتل خليل) وقربهما إليه، ولكن هذا الإجراء أغضب المماليك الأشرفية (مماليك الأشرف خليل) فثاروا فى القاهرة ونهبوا الأسواق واتجهوا إلى القلعة لمحاصرتها، غير أن جنود كتبغا تمكنوا من الانتصار عليهم.

وبدأ لاجين يحرض كتبغا على إبعاد الناصر والاستيلاء على العرش، وقال له إن الناصر متى كبر لاينقيك، واقتنع كتبغا بهذا الرأى، فجمع الخليفة والأمراء والقضاة وتحدث إليهم فى ضرورة أن يلى السلطنة رجل قوى تهابه الجند وتخشاه الرعية، وضرب لهم مثلاً بثورة المماليك الأشرفية، وقال إنها لم تكن لتحدث لو كان السلطان رجلاً كبيرًا، ثم ختم حديثه بقوله: «لقد انخرق ناموس المملكة، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه».

واقتنع الحاضرون برأيه ووافقوا على خلع الناصر وتولية كتبغا. فأمر فى الحال بنقل الناصر وأمه من القصر وأسكنهما فى بعض قاعات القلعة، وبذلك انتهت سلطنة الناصر الأولى، وبدأت سلطنة كتبغا.

٢ - السلطان كتبغا :

لم تدم سلطنة كتبغا غير سنتين، وقد بدأ حكمه بتعيين الأمير لاجين نائبا للسلطنة، ولم يكن كتبغا موفقًا فى حكمه، لا لضعف فى شخصيته، وإنما لأسباب خارجة عن إرادته، فقد اقترن عهده بأحداث كثيرة أثارت غضب الشعب وكرهه، وكان من أهمها وصول طائفة من المغول الوافدين، وقصور النيل فى فيضانه، وما نتج عنه من غلاء ومجاعة وانتشار الأوبئة والأمراض.

أما المغول الوافدية وهم طائفة من الأويراتيه الذين سبق أن أشرنا إليهم، فقد رحب كتبغا بمقدمهم لأنه مغولى مثلهم، وأمر عددًا منهم، مما أثار غضب المماليك وحنقهم، وكره الشعب هؤلاء الوافدية كذلك لأن الكثيرين منهم كانوا لايزالون على وثنيتهم لم يعتنقوا الإسلام بعد، فكانوا يخالفون أوامر الدين ولا يصومون شهر رمضان.

وفى نفس الوقت قصر النيل فى فيضانه، فقل الموجود فى الأسواق من القمح والشعير وأصناف المأكولات الأخرى وغلت أسعارها، وعمت المجاعة حتى أكل الناس أبناءهم والميتة من الكلاب والمواشى، وانتشرت كذلك الأوبئة والأمراض وكثر موت الناس حتى كان يخرج من باب من أبواب القاهرة - كما تذكر المراجع - كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت، وتزايد الأمر فصارت الناس تدفن بغير غسل أو كفن، وعجز الناس عن مواراة الأموات فى القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم.

وحاول كتبغا معالجة الموقف قدر استطاعته، فاستورد القمح من الشام، وفرق الفقراء على المماليك لمساعدتهم، ولكن هذه المحاولات لم تخفف من كره الشعب له، فقد قرنوا بين هذا البلاد الذى أصابهم وبين تولية كتبغا للحكم.

٣ - السلطان لاجين :

وانتهز لاجين الصديق القديم لكتبغا - الفرصة، وبدأ يأتمر به ويعمل على إبعاده وتولية السلطنة مكانه، ونفذت المؤامرة فى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م) إذ كان كتبغا فى زيارة للشام وفى صحبته لاجين، وفى طريق العودة إلى مصر انقض لاجين على السلطان يريد قتله، ولكن كتبغا استطاع الفرار والعودة إلى دمشق حيث لجأ إلى قلعتها واحتمى بها.

واستولى لاجين على خيمة السلطان وخزانته، وأسلحته، وجمع الأمراء وتشاور معهم، فوافقوا على توليته بشرط ألا ينفرد برأى دونهم، ولا يسلط عليهم مماليكه أو يتركهم يعبثون بمصالح الغير، فوافق على هذه الشروط وقال لهم: «وأنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم، ولست موليًا عليكم من مماليكى أحدًا، ولا أسمع فيكم كلامًا أبدًا، ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل (كتبغا)».

فأقسم الأمراء يمين الولاء والطاعة فى المحرم من سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٧ م). أما كتبغا فقد أصدر لاجين بعد ذلك أمرًا بتعيينه نائبًا على قلعة صرخد بعد أن أخذ عليه التعهد بأن لا يكاتب أحدًا أو يشاور أحدًا، وفى عصر سلطنة الناصر الثانية نقل حاكمًا على حماة فظل بها إلى أن توفى فى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م).

وكان لاجين أصلاً مملوكًا من مماليك السلطان قلاوون، ثم أعتقه، ورقاه إلى أن أصبح أميرًا، وزوجه إحدى بناته، وعينه نائبًا على دمشق، فلما ولى خليل عزله عن هذه النيابة، فأثار هذا العزل الحقد فى نفسه ودفعه إلى الاشتراك فى تدبير المؤامرة لقتله.

غير أنه اتخذ من زواجه من ابنة قلاوون ذريعة لأحقيته فى تولى العرش، ولكى لا يبدو متناقضًا مع نفسه فقد عمل على إبعاد الناصر محمد إلى قلعة الكرك، وأقنعه أنه لم يفعل ذلك إلا رغبة منه فى إعطائه فرصة أثناء مقامه فى الكرك ليكتسب خبرة وتجربة فى شئون الحكم، فإذا بلغ السن التى تؤهله لتولى مقاليد الحكم تنازل له عن العرش وأعاده إليه. ولهذا قال وهو يودعه قبل ترحيله إلى الكرك: «أنا مملوك ومملوك والدك، أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل (أى تصبح رجلاً) وتتخرج وتجرب الأمور وتعود إلىملكك».

ويقال أن حسام الدين لاجين كان يحيا – أثناء نيابته فى دمشق -- حياة كلها لهو وانصراف إلى شرب الخمر والبحث عن الملذات، ولكنه تاب عن ذلك كله بعد توليه العرش، وانقلب رجلاً آخر، فأقبل على العبادة، وقرب إليه العلماء، وبذل كل ما يستطيع من جهد لإرضاء الشعب، وحرص على أن يسود العدل بين الناس. وفى عهده عمل الروك الحسامى، وراعى المصلحة عند إعادة توزيع الإقطاعات، وتقرب إلى عامة الشعب، فكان يجالسهم ويشاركهم فى طعامهم، وأصدر كثيرًا من الأوامر للمحافظة على أموال اليتامى. وكان قد نذر أن يقوم بإصلاح جامع ابن طولون أثناء اختفائه فيه بعد مقتل خليل. فوفى بنذره وصرف المبالغ الطائلة على تجديد الجامع.

وكان من حسن طالعه أن علا فيضان النيل، فكثرت المحاصيل، وانخفضت الأسعار، وانقطعت الأوبئة، فزاد حب الناس له، فكانوا يعلنون عن حبهم بالترحيب به والتهليل له كلما خرج بموكبه يشق شوارع القاهرة.

كان من الممكن أن يستقر الملك للاجين بعد أن قام بهذه الإصلاحات، وبعد أن صفت له الأحوال وخلص له حب الشعب، إلا أن نجمه بدأ يأفل عندما وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه من سبقوه، فقد حنث بالوعد الذى أخذه على نفسه أمام الأمراء عندما اختاروه لتولى السلطنة، فبدأ بتقريب نفر من مماليكه إليه ورقاهم إلى مرتبة الإمارة. وكان أقرب المقربين إليه وأحبهم إلى نفسه مملوكه «منكوتمر» فعينه نائبًا للسلطنة، وأطلق له العنان يتصرف وفق هواه،

فاستبد بالحكم، واستحوز كما يقول المؤرخ المفضل ابن ابى الفضائل فى كتابه النهج السديد- : «على عقل مخدومه واستولى عليه، وحجبه عن الخاصة والعامة».

ولهذا اشتد كره العشب والجند والأمراء جميعًا لمنكوتمر، وخاصة لأنه كان رجلاً جادًا فظًا عابسًا وكره الناس بالتالى السلطان لاجين لأنه هو الذى سلطه عليهم، ثم زاد حنقهم عليه عندما أراد أن يعين منكوتمر وليًا لعهده.

وشعر منكوتمربكره الناس والأمراء له، فأراد أن ينتقم من الأمراء ويبعدهم عن طريقه، فأشار على السلطان بأن يبعد أمراء مصر إلى الشام، وأن ينقل أمراء الشام إلى مصر، واقتنع السلطان بمشورته، وأخذ يعد العدة لتنفيذ هذا المشروع، فأحس الأمراء بالخطر، وراحوا يفكرون من جهتهم فى القضاء على منكوتمر والسلطان معا.

وفى يوم الخميس العاشر من ربيع الآخر من سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) انقض أحد المتآمرين على السلطان وهو يؤدى صلاة العشاء، فضربه بسيفه، وأكمل عليه بقية الأمراء، ثم اتجهوا إلى منكوتمر فاجهزوا عليه كذلك، وبذلك انتهت سلطنة لاجين التى لم تعمر غير سنتين وشهرين وثلاثة عشر يومًا.

٤ -السلطنة الثانية للناصر محمد (٦٩٨هـ - ٧٠٨ هـ - ١٢٩٨م - ١٣٠٨ م)

بقتل لاجين خلا عرش مصر، وقد اجتمع أمراء المماليك للتشاور، فتقدم الأمير كرجى - قاتل لاجين - ورشح زميله امير طغجى للسلطنة، كما رشح نفسه لنيابة السلطنة، وخاطب الأمراء بقوله:

«يا أمراء: أنا الذى قتلت السلطان، وأخذت بثأر أستاذى (فقد كان من مماليك الأشرف خليل)، والملك الناصر الصغير ما يصلح، لا يكون السلطان إلا لهذا - وأشار إلى الأمير طغجى - وأكون أنا نائبه، ومن خالف فدونه»، واستل سيفه مهددًا.

ويبدو أن الأمراء لم يرحبوا بهذا الترشيح، فقد قابلوا هذا الحديث بالوجوم والسكوت، ثم انفض المجلس دون الوصول إلى اتفاق.

وبدأ الخلاف والمنافسات، وثارت الفتنة فى البلد، وانتهت بقتل الأميرين كرجى وطغجى، ولم يكن بين الأمراء من هو أهل لثقتهم جميعًا، فاستقر الرأى أخيرًا بينهم على استدعاء السلطان الشرعى الناصر محمد من سجنه بالكرك ليلى السلطنة.

وسافرت وفود الأمراء إلى الكرك وأبلغت الناصر قرارها، فتردد أول الأمر خوفًا من أن تكون وراء هذه الدعوة مكيدة، فلما تأكد من صدق الأمراء رحب الدعوة، وفرح فرحًا زائدًا، وخرج من الكرك فى موكب حافل، وسار الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن صعد قلعة الجبل، وجلس على

العرش، وجدد الأمراء له البيعة. وأصدر الخليفة التقليد بإنابته عنه فى الحكم وتعيينه سلطانًا، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عامًا.

وكان أول قرار اتخذه الناصر أن عين الأمير سلار (التترى) نائبًا للسلطنة، والأمير بيبرس الجاشنكير (الشركسى) أستادارا (وكان صاحب هذه الوظيفة يشرف على كل ما يتصل بمطبخ السلطان وطعامه).

وكان الناصر فى هذه المرة لايزال صغيرًا لم يصل بعد سن البلوغ أو النضوج، ولهذا بدأت الأحداث تشير إلى أن الأميرين سلار وبيبرس سيلعبان نفس الدور الذى سبق أن لعبه كتبغا ولاجين، ولكن هذا النزاع المرتقب تأجل قليلاً، فإن الناصر لم يكد يبدأ سلطنته الثانية حتى وصلته النذر بأن المغول يهددون حدود دولته فى الشام، فقد خرج غازان إيلخان فارس بجيوشه يريد الانتقام من المماليك والأخذ بثأر الهزائم السابقة.

وأمر الناصر بإعداد الجيوش، وتولى قيادتها بنفسه، وخرج متجهًا إلى الشام وفى صحبته الأميران سلار وبيبرس، وتقابل الجيشان عند مدينة حمص، وكان النصر فى هذه الموقعة للمغول، وهزم المماليك هزيمة شنعاء وولوا الأدبار، وتألم الناصر ألمًا شديدًا لهذه الهزيمة، وعادت فلول الجيش إلى مصر لتعيد تكوين جيش جديد.

وفى أثناء هذه الاستعدادات وصل وفد من قبل غازان يعرض الصلح ويحمل رسالة فى هذا المعنى، واستجاب الناصر لهذه الدعوة، وحمل الرسل رده على خطاب غازان وفيه يقول: إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها.. والشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1]،

وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال ولا انفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ولكن يبدو أن طلب غازان للصلح كان خدمة يقصد بها كسبا للوقت للتعرف على أحوال العدو، فإن الأخبار لم تلبث أن وصلت من حلب تنبىء بأن غازان يستعد للمسير إلى الشام، وأن أهالى دمشق قد تملكهم الذعر ولجأوا إلى المسجد الجامع يضجون بالدعاء إلى الله أن ينقذهم من هذا الكرب العظيم.

وأصدر الناصر أوامره بإعداد الجيوش، وخرج الجند فى هذه المرة يدفعهم الحماس والرغبة فى الانتقام لمسح عار الهزيمة السابقة، وتقابل الجيشان فى هذه المرة فى (مرج الصفر) بالقرب من دمشق. وأظهر سلار وبيبرس شجاعة فائقة، وأبلى الجيش المصرى كله بلاء حسنًا، وعقدت

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠٣.

له ألوية النصر، واتجه الناصر بعد المعركة فى كوكبة من فرسانه إلى دمشق فخرج أهلها جميعًا يستقبلونه استقبال المنتصر، ويضجون بالدعاء له والشكر لله سبحانه وتعالى، وزينت المدينة كلها، وظلت الأفراح قائمة إلى أن وافى عيد الفطر، فصلى الناصر صلاة العيد فى دمشق ثم اتخذ طريقه إلى مصر.

وفى مصر أقيمت الزينات أفخم ما تكون، وأقيمت القلاع وأقواس النصر من باب النصر إلى قلعة الجبل، و فرشت الطريق بالشقق الجريرية، وتقدم السلطان يحيط به أمراؤه وكبار رجال الدولة والمصريون حوله يهللون ويكبرون، وفى ركابه أسرى المغول مقيدين فى السلاسل، وقد علقت فى رقابهم رؤوس القتلى، ويتبعهم ألف رأس أخرى محمولة على ألف رمح، ونحو ألف وستمائة أسير آخرين يحملون طبولا مخرقة.

ولم يكد الناصر يستقر فى عاصمة ملكه، ولم تكد حفلات الفرح بالنصر تهدأ حتى تواترت الأخبار أن الأعراب قد استشرى خطرهم وعاثوا فساد فى أنحاء الصعيد ومدنه، وزاد استهتارهم بالمماليك وبالدولة، فمنعوا الخراج، وهجموا على السجن وأخرجوا الساجين، وأعلنوا عصيانهم، وأن المماليك عبيد خوارج، وأنهم هم احق بملك البلاد، وقطعو الطرق، ونهبوا الناس.

وكان لابد للدولة أن تضع حدًا لهذا العبث، فوضعت خطة ماكرة حكيمة، فأصدرت الأوامر لوالى الجيزة أن يمنع الناس من السفر إلى الصعيد، ثم أشاعت فى البلاد أن الأمراء سيسافرون إلى الشام، وتقرر بعد ذلك أن تخرج أربع فرق من الجيش إلى الصعيد: واحدة إلى البر الغربى، والثانية إلى البر الشرقى، والثالثة تسير فى النيل، والرابعة تتخذ الطريق المألوف الذى يسلكه الناس.

وتحركت هذه الفرق الأربع فى وقت واحد - وعلى قيادتها الأميران سلار وبيبرس - وهى تحمل الأوامر بقتل من تراه من العربان مهما كانت مكانته، ونجحت الخطة، وفوجئ الأعراب بجيوش المماليك تنقض عليهم وتحيط بهم من كل مكان، وتأخذ عليهم السبل إذا ارادوا الفرار أو الالتجاء إلى الجبال، وتخرجهم من مخابئهم، وقتل الأعراب فى كل مكان، واستولت الحكومة على أملاكهم ودوابهم وأسلحتهم، وبذلك انكسرت شوكتهم، وتخلصت الدولة من شرورهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وأمن الناس فى الصعيد على أرواحهم وأموالهم.

فزع الناصر من هذين الخطرين الخارجى والداخلى وبدأ يحاول - معتزا بانتصاراته - أن يباشر بنفسه شؤون الحكم، ولكنه وجد أن الأميرين سلا وبيبرس يمارسان السلطان الفعلى ويتحكمان فى تصرفاته ويضيقان عليه، فضاق بهما وبتصرفاتهما، فزهد فى الحكم، وقال للأمراء: «إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع إليه فخذوه وابعثونى أى موضع أردتم، ثم

تظاهر بأنه خارج للحج، فلما وصل الكرك أعلن أن عدل عن الحج، ورغب في المقام بالكرك، فهى كما قال: «من بعض قلاعى وملكى، وقد عولت على الإقامة بها» وفوجىء الأميران بهذا القرار، فأرسلا إلى الناصر يتهددانه ويطلبان منه العودة إلى القاهرة. ولكنه أصر على موقفه.

٥ - سلطنة بيبرس الجاشنكير :

وخلا العرش مرة ثانية، ولم يكن هناك غير سلار وبيبرس، فتقدم سلار وخاطب الأمراء قائلاً: «والله يا أمراء ما أصلح للملك، ولا يصلح له إلا أخى هذا»، وأشار إلى بيبرس الجاشنكير. فوافق الأمراء على هذا الترشيح، وأعلن بيبرس سلطانًا، وعين سلار نائبًا للسلطنة.

ولم تطل سلطنة بيبرس غير سنة واحدة (١٣٠٨ هـ - ١٣٠٩ م)، ولم تستقر له الأمور خلالها، فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار، ونسب الشعب هذا كله إلى بيبرس، فكرهوه وكرهوا عهده، وخاصة أنه اتبع سياسة العنف فى معاملته للناس والأمراء،فقد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه، وأعلن الشعب عن سخطه بالتظاهر فى شوارع القاهرة يرددون قولهم:

«سلطاننا ركين (يقصدون بيبرس لان لقبه ركن الدين)، ونائبنا دقين (يقصدون سلا إذا لم يكن فى لحيته غير شعرات قليلة)، يجينا الماء منين، تجيبوا لنا الأعرج (يقصدون الناصر فقد كان به عرج خفيف) يجى لنا الماء يتدحرج».

أما الناصر فإنه لم يقصد بلجوئه إلى الكرك التنازل عن العرش، وإنما أراد أن يمهد للاتصال بأمراء الشام ونوابه لجمعهم حوله والانتصار بهم، ثم مهاجمة مصر لابعاد بيبرس وسلار واستخلاص العرش ثانية لنفسه، فقد كان يصعب عليه أن يصطنع الأنصار وهو فى مصر محاط بجيوش بيبرس وسلار ومماليكهما، ولم أنه بقى فى مصر ولم يخرج إلى الكرك لتغليا عليه وقتلاه.

وقد نجحت خطة الناصر، واستجاب أمراء الشام لدعوته، وأعلنوا ولاءهم له، والتفوا حوله، بل لقد خرج بعض الأمراء الساخطين من مصر، وانضموا إلى الناصر. عند ذلك خرج الناصر بجنده إلى دمشق فاستقبله أهلها بالحفاوة والترحيب. ودعى له على منابرها.

وكانت الحالة فى مصر تزداد كل يوم سوءًا، وسادت بها الفوضى، وضاعت هيئة بيبرس، فجمع الأمراء وتشاور وإياهم فى الموقف، فنصحوه بالتنازل عن العرش وأن يكتب إلى الناصر يرجوه العفو، فأمن على رأيهم، وأرسل إلى الناصر كتابًا يسأله فيه العفو وأن يعينه نائبًا على إحدى المدن، وقال فى ختامه: «فإن حبستنى عددت ذلك خلوة، وإن نفيتنى عددت ذلك سياحة، وإن قتلتنى كان ذلك لى شهادة». ثم أعلن خلع نفسه من السلطنة وإسقاط اسمه من خطبة الجمعة والعيدين، وكان ذلك بحضور الخليفة والقضاة الأربعة.

٦ - السلنة الثالثة (٧٠٩هـ - ٧٤١ هـ = ١٣٠٩م - ١٣٤١ م)

وغادر الناصر دمشق إلى القاهرة فوصلها فى جمادى الاخرة ٧٠٩ هـ (ديسمبر ١٣٠٩ م) وخرج الناس والأمراء - وفى مقدمتهم سلار - لاستقباله، وزينت القاهرة خير زينة، وضج الناس بالفرح لعودة سلطانهم.

وكان الناصر فى هذه المرة قد جاوز سن الطفولة، فقد كان عمره وقتذاك خمسة وعشرين عاما، وقد صقلته الأحداث وحنكته التجارب، فلم يترك لأحد من الأمراء شيئًا من النفوذ، بل جمع السلطة كلها فى يديه، ورسم خطة للانتقام الهادئ البطئ من كل الأمراء الذين أساءوا إليه، وبدأ بيبرس فأمر بالقبض عليه، فحمل إلى مجلسه وهو مقيد بالحديد، فأخذ يعدد له ذنوبه، فأقر بيبرس بها وسأله العفو والمغفرة، ولكن السلطان أمر بخنقه.

أما سلار فقد طلب من السلطان أن يعفيه من وظيفة نائب السلطنة وأن يعينه حاكمًا على الشوبك، فاستجاب الناصر لطلبه مؤقتًا. وسافر سلار إلى الشوبك، فلما اطمأن واعتقد أن السلطان قد عفا عنه أرسل الناصر فاستدعاه لمقابلته، وعند وصوله إلى القاهرة قبض عليه وأودع السجن فى قلعة الجبل، وصودرت كل أمواله، وكان سلار من أغنى الأمراء محبًا لجمع المال، فقد بلغت ثروته المصادرة أكثر من خمسين حملاً من الذهب والفضة والجواهر واللجم المفضضة والأقمشة المزركشة.. الخ.

وقد أمر الناصر أن يترك سلار سجينًا دون طعام أو شراب، وبعد مرور سبعة أيام اشتدت به آلام الجوع والعطش، وصار يصرخ فى طلب الطعام والماء، وعند ذلك فتح باب السجن وقدمت إليه أطباق ثلاثة: ففرح بها وتقدم فكشف عنها، فأصيب بخيبة أمل كبيرة، إذ وجد الطبق الأول مليئًا بالذهب والثانى مليئًا بالفضة، والثالث مليئًا باللؤلؤ والجواهر، فاشتد ألمه، ومات بعد قليل بعد أن أكل أحد أصابعه كما تقول بعض الروايات، ودفن فى التربة التى كان قد أنشأها لنفسه بالقرب من جامع ابن طولون.

وهكذا فعل الناصر بكل الأمراء الذين أساءوا إليه فى الماضى أو الذين حاولوا التآمر ضده بعد عودته، فقد كانت عينه فى هذه المرة يقظة ترقب من ب عيد، فإذا رأى بادرة خروج أو تمرد قضى عليها فى الحال.

الفصل الثالث

إصلاحات الناصر محمد ومنشآته

وطالت مدة حكم الناصر فى سلطنته الثالثة فبلغت اثنين وثلاثين عامًا نعمت فيها مصر بالهدوء والاستقرار، وبلغت الذروة من التقدم والرخاء والعمران والنفوذ. فقد بدأ الناصر بإلغاء كثير من المكوس، والمقصود بالمكوس فى اللغة الضرائب غير الشرعية التى استحدثها الولاة والسلاطين لسد الحاجات الطارئة للدولة، ودراسة هذه المكوس وأنواعها وأسمائها تعطينا فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية فى عصر المماليك، فمن المكوس التى ألغاها الناصر: (مكس ساحل الغلال)، و(مقرر السجون) . و(مقرر طرح الفراريج) ، و(مقرر الأقصاب) ، و(مقرر المعاصر) ، و(مقرر رسوم الأفراح) ، و(حقوق القينات)[1] .

وكان إلغاء هذه المكوس جزءًا من سياسته التى رسمها لإضعاف الأمراء، فقد كان الأمراء أول المنتفعين بها. ومن الأعمال الكبرى التى قام بها الناصر وتعتبر كذلك جزءًا من هذه السياسة : الروك الناصرى . والروك كلمة من أصل قبطى تطلق على عملية قياس الأرض ومسحها وتقدير ما عليها من خراج، وهى تقابل ما نسميه فى الوقت الحاضر بعملية فك الزمام .

وكانت عملية الروك تجرى من الناحية النظرية كل ثلاثين سنة، غير أن المراجع تذكر أن البلاد قد ريكت منذ الفتح العربى إلى عهد الناصر محمد سبع مرات فقط.

١ فكان الروك الأول حوالى سنة ٩٧هـ على يد ابن رفاعة والى مصر من قبل الخليفة سليمان بن عبد الملك .

٢ – وكان الروك الثانى سنة ١٢٥هـ على يد عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج فى مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك.

٣ - وكان الروك الثالث حوالى سنة ٢٥٣هـ على يد ابن المدبر عامل الخراج من قبل الخليفة المعتز بالله.

٤ - وكان الروك الرابع سنة ٥٠١هـ على يد الأفضل شاهنشاه الوزير الفاطمى ، ولذا سمى بالروك الأفضلى .

٥ - وكان الروك الخامس وهو الروك الصلاحى - على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ٥٧٢هـ .

---

(١) راجع الخطط للمقريزى .

٦ - وكان الروك السادس - وهو الروك الحسامى - فى سنة ٦٨٩هـ على يد السلطان حسام الدين لاجين .

٧ - وكان الروك السابع - وهو الروك الناصرى - على يد الناصر محمد بن قلاوون .

وبعد إتمام هذا الروك أعاد الناصر النظر فى تقدير عبرات (إيراد) كثير من الاقطاعات، كما أعاد توزيع هذه الاقطاعات بحيث يحد من قوة الأمراء وسلطانهم .

وكان الناصر شغفًا بالبناء والتعمير ،وفى عهده أقيم كثير من المنشآت العمرانية وبنى عدد كبير من المساجد والخانقاوات .

ومن أهم منشآته فى القاهرة الميدان العظيم على النيل الذى كان يعرف بالميدان الناصرى، وموقعه الآن حى جاردن سيتى بالقاهرة، وقد خصص لسباق الخيل، وكان للناصر شغف عظيم بالخيل واقتنائها وتربيتها .

ومنها القصر الأبلق ، وكان يشرف على الميدان الكبير، وقد أحضر الناصر مهرة الصناع من دمشق ليشتركوا مع زملائهم من المصريين فى بناء هذا القصر وزخرفته. وكانت واجهته مكونة من أشرطة عريضة متوازية ذات لون أسود أو أصفر على التوالى نتيجة لاستخدام نوعين من الصخور لهما هذان اللونان - ولهذا سمى بالأبلق - .

ومنهم الإيوان ، وكان قد بناه والده السلطان قلاوون وجدده الأشرف خليل، فأعاد بناءه الناصر محمد، وأنشأ به قبة عظيمة. ونصب فى صدره سرير الملك وكان مصنوعًا من العاج والأبنوس، وكان موقع هذا الإيوان حيث يقوم مسجد محمد على الحالى فى القلعة .

ومنها مسجد القلعة ، وقد أنشأه إلى جانب القصر والإيوان ، ولا يزال موجودًا حتى اليوم، وله مئذنتان تعتبران من أجمل المآذن فى مصر.

ومنها خانقاه الصرفية التى بناها لقرب من سرياقوس ، وقد عمر ما حولها فيما بعد حتى أصبحت اليوم قرية مستقلة تعرف باسم (الخانكاه) .

وقد قام الناصر بكثير من المنشآت والمشروعات العمرانية خارج القاهرة، من أهمها مشروعه لإعادة حفر خليج الإسكندرية، وكانت الرمال قد طمرته وتعطلت الملاحة به؛ وكان من نتائج تنفيذ هذا المشروع نشاط التجارة فى الإسكندرية وازدياد العمران بها، ونمو الأراضى المنزرعة على ضفتى الخليج بين النيل والإسكندرية .

الفصل الرابع

علاقات مصر الخارجية

فى عهد الناصر محمد

ولقد كان لهذا الاستقرار والرخاء الذى نعمت به مصر فى عهد الناصر محمد ولسياسته الحازمة أثر كبير فى رفع مكانة مصر فى العالم الخارجى، فسعت معظم الدول الإسلامية والمسيحية إلى خطب وده، وعمل هو من جانبه على تحسين علاقاته بهذه الدول وساعده على هذا أن الخطرين الكبيرين اللذين كانا يهددان مصر وهما المغول والصليبيين كان قد انتهى أمرهما.

أما الصليبيون فقد خرجت فلولهم من الشام فى عهد أخيه خليل، واستقرت هذه الفلول فى جزيرة قبرص ورودس، حقيقة قد حاول أصحاب هاتين الجزيرتين العمل على إحياء الفكرة الصليبية، وهاجم القبارصة جزيرة أرواد المقابلة لشواطىء الشام فى عهد الناصر إبان سلطنته الثانية، ولكنه بادر بإرسال أسطول هزمهم وأبعدهم عن الجزيرة.

أما إيلخانات فارس - بعد غازان - فكانوا قد أسلموا وجنحوا للسلم، وعملوا على تحسين العلاقات بينهم وبين الناصر، وساعد على هذا أن بعض أمراء المماليك الخائفين من الناصر كانوا قد فروا إلى بغداد، فأرسل الناصر عددا من الإسماعيلية الفداوية إلى بغداد لاغتيالهم، فخاف إيلخان بوسعيد وأرسل إلى الناصر يفاوضه لعقد معاهدة صداقة تنص على تسليم هؤلاء الأمراء للناصر، وأن يسلم إليه الناصر كذلك بعض الأمراء المغول الذين كانوا قد فروا من بغداد ولجأوا إلى مصر!

وبعد وفاة بوسعيد قامت المنافسات بين الأمراء، وانقسمت الدولة، واستقل بالعراق السلطان حسن الجلائرى المعروف بحسن بوزرج - أى حسن الكبير - وأسس بها أسرة تعرف باسم الأسرة الجلائرية، وقد طلب حسن من الناصر أن يمده بالمساعدات الحربية ليستعين بها على حرب فرع الدولة المغولية الآخر بفارس، فوعده الناصر بالمساعدة مقابل أن يخطب باسمه على منابر بغداد، وأن ينقش اسمه على نقودها.

وكذلك استمر الناصر محمد على الصداقة التقليدية مع دولة مغول القفجاق.

وكان الناصر يشرف على الحجاز ويعين أمراء مكة والمدينة، فقد كان الحجاز خاضعا لمصر منذ أوائل العصر المملوكى.

وخطب ملوك بنى رسول فى اليمن للناصر، وكانوا يخطبون وده ويرسلون إليه الهدايا.

وقد لجأ إلى مصر صاحب تونس أبو زكريا اللحيانى - أحد ملوك الحفصيين - فساعده الناصر على العودة إلى عرشه، فخطب للناصر على منابر تونس .

وقامت علاقات طيبة بين الناصر ودولة بنى قرمان - وهى دولة صغيرة قامت فى جنوب شرقى آسيا الصغرى على أنقاض دولة سلاجقة الروم، وفى عام ٧١٨هـ وصلت إلى مصر سفارة من هذه الدولة تحمل نقودًا ضربت فيها وعليها اسم السلطان الناصر محمد، ورسالة تشير إلى أنهم يخطبون للسلطان على منابرهم .

وقد أكد إحياء الخلافة العباسية فى مصر زعامتها على كل الدول الإسلامية الأخرى، لهذا نجد أن السلطان محمد بن طغلق أحد ملوك الهند يرسل إلى الخليفة العباسى فى مصر - أيام السلطنة الثالثة للناصر - رسلان يطلبون منه أن يصدر تقليدًا بتولية السلطان محمد الملك. وقد أرسل نفس السلطان بعثتين إلى الناصر يطلب منه المساعدة ضد المغول الذين كانوا يهددون ملكه .

وقامت علاقات ود وصداقة بين مصر الدول الإسلامية فى غرب أفريقيا، وهى دول الكاتم وبورنو والتكرور ، ومر ملك التكرور منسا موسى بمصر فى عهد الناصر محمد - وهو فى طريقه لأداء فريضة الحج - فقوبل بكل إكرام وترحاب .

وكثر وصول السفارات إلى مصر إبان السلطنة الثالثة للناصر من ملوك الدول المسيحية الكبرى، وكلها تخطب وده أو تطلب صداقته أو مساعدته، فوصلت سفارات من البابا، ومن ملك فرنسا، وملك أرجونة، وإمبراطور القسطنطينية، وإمبراطور الحبشة .

فكانت سفارة البابا تطلب من السلطان إيقاف الحرب ضد مملكة أرمينية الصغرى، وأن يحسن معاملة المسيحيين المقيمين فى دولته .

وكانت سفارة ملك فرنسا - شارل الرابع - تهدف إلى تحقيق نفس الغرض إذ كانت تحمل رسالة يرجو فيها الملك أن يشمل الناصر المسيحيين المقيمين فى دولته بعين الرعاية والعدل ، وقد رد الناصر عليه ردًا جميلاً ووعد بتحقيق طلبه .

أما سفارة إمبراطورية بيزنطية فكانت تحمل الهدايا للسلطان، والرجاء بأن يحسن معاملة رعاياه المسيحيين، والرغبة فى عقد مخالفة دفاعية لإيقاف هجمات الأتراك العثمانيين الذين كانوا يهددون حدود الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت .

كل هذا يثبت فى وضوح مبلغ ما وصل إليه الناصر من نفوذ وسلطان فى داخل مصر وخارجها، ولم يكن غريبًا أن يقول المؤرخ ابن إياس فى حديثه عنه :

(وخطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك ، وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه، وصار جميع مصر فى قبضته) .

الباب الخامس

أبناء الناصر محمد وأحفاده
ونهاية دولة المماليك البحرية

١ - بيت قلاوون وتجربة نظام الوراثة .

٢ - أبناء الناصر محمد .

٣ - سنة الفناء أو الوباء الأسود .

٤ - أحفاد الناصر محمد .

٥ - حملة بطرس لوزنيان على الإسكندرية .

الباب الخامس

أبناء الناصر محمـد وأحفـاده

ونهاية دولة المماليك البحرية

١ - بيت قلاوون وتجربة نظام الوراثة :

بلغت دولة المماليك البحرية أوج قوتها داخليًا وذروة عظمتها فـى المجـال الـدولى فـى عصـر الناصر محمد بن قلاوون، وكان لشخصية الناصر وأبيه قلاوون ولطول المدة التى حكمها فيها أثر قوى فى تعلق أمراء المماليك بالأسرة، ولهذا أجمعوا بعد وفـاة النـاصر علـى إبقـاء السـلطنة فـى أبنائه، فولى الحكم فى الأربعين سنة التالية لوفاة الناصر (١٣٤٠م - ١٣٨٢م) إثنا عشر سـلطانًا من أولاده وأحفاده ، ثمانية منهم من أولاده حكموا نحـو العشـرين سـنة، وأربعـة مـن أحفـاده حكموا فى العشرين سنة الثانية .

وقد ولى هؤلاء الأبناء والأحفاد العرش أطفالاً صغارًا، فلم يكن لهم من الأمر شىء ، بل كانت أمور الدولة كلها فى أيدى كبار الأمراء، فشـغلوا بـالمؤامرات والمنافسـات عـن النظـر فـى صـالح البلاد والرعية، فساءت الأحوال الاقتصادية وعمت الفوضى، وزاد الطـين بلـة حدثـان خطيران وقعا فى تلك الحقبة، أولهما انتشار الوباء الأسود (١٣٤٨م - ١٣٤٩م)، وثانيهما غزوة القبارصة لمدينة الإسكندرية (١٣٦٥م).

وعلى الرغم من ضعف أبناء الناصر وحفدته وصغر سنهم ، وعلى الرغم مـن كـثرة المنازعـات التى نشبت بين أمراء المماليك، فإن أحدًا منهم لم يجرؤ على التقدم لتولية العـرش ووضـع حـد لحكم أسرة بنى قلاوون . ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأن أمراء المماليك قنعوا بما فى أيديهم مـن سلطان فعلى وتركوا للسلاطين الصغار من بيت قلاوون المنصـب والاسـم، أو أنـهم عجـزوا فعـلاً على أن ينقعوا الرأى العام المعاصر بالتخلى عن بيت قلاوون بعد أن بذل مـا بـذل مـن الجـهود وأدى ما أداه من خدمات لمصر وللسلطنة المملوكيـة وخاصـة فـى عـهدى قـلاوون وابنـه النـاصر محمد .

وهذه ظاهر لها أشباه فى التاريخ ، وخير شبيه لها الخلافة العباسية فى أخريات أيامها فى بغداد، فقد قنع المتسلطون عليها من بويهيين وسلاجقة بالسلطان الفعلى وأبقـوا علـى الخلفـاء، وتركوا لهم المنصب واللقب يستترون وراءهما للتصرف فى أمور الدولة كما يشاءون وللتحكـم فـى الخلفاء أنفسهم .

ولكن هذه التجربة الفريدة لتطبيق نظام وراثة السلطنة فى العصر المملوكى باءت أخيرًا بالفشل حين تفاقمت الفوضى ومهدت السبيل لازدياد قوة المماليك البرجية أو الجراكسة ونفوذهم حتى (عرفوا - كما يقول المقريزى - بين الأمراء وقوى أمرهم، وصار منهم أمراء وأصحاب أخباز، وتميزوا بكبر عمائهم).

وانتهى الأمر بنجاح واحد من هؤلاء الأمراء الجراكسة - وهو برقوق - فى خلع آخر سلطان من حفدة الناصر، وفى تولى العرش، فكان هذا إيذانًا بنهاية حكم أسرة بنى قلاوون ودولة المماليك البحرية. وببدء دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة. وفيما يلى تفصيل الحديث عن هذه الحقبة من حكم أولاد الناصر وحفدته.

٢ - أبناء الناصر محمد :

كان الناصر محمد يمهد فى السنوات الأخيرة من حياته لتوريث العرش لأحد أبنائه، فعهد فى سنة ١٣٣١م بالملك من بعده لابنه أنوك، وكان فى التاسعة من عمره، ووافق الأمراء على هذا الاختيار، وركب أنوك بشعار السلطنة، واحتفلت الدولة بهذه المناسبة احتفالاً كبيرًا، ووزعت الخلع على الأمراء وكبار الموظفين. ولكن أنوك لم يقدر له أن يلى العرش، فقد توفى فى سنة ١٣٤٠م قبل وفاة أبيه بقليل. فجمع الناصر كبار الأمراء وأخذ عليهم المواثيق بتولية ابنه سيف الدين أبى بكر السلطنة من بعده.

وفى نفس السنة ١٣٤٠م توفى الناصر محمد ، وصدق الأمراء وعودهم، وولى سيف الدين أبو بكر العرش، وكان فى العشرين من عمره، ولكنه كان قليل الخبرة، فلم تلبث أن قامت أسباب الخلاف بينه وبين الأمراء، وخاصة كبيرهم قوصون أتابك العسكر، وأخذ قوصون يثير كبار الأمراء على السلطان ويخيفهم منه.

ويروى المقريزى فى (السلوك) أنه جمعهم وقال لهم :

(هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخلى أحدًا منكم) . واستمع الأمراء لقوله، والتفوا حوله، فألقى القبض عل السلطان وأبعده إلى قوص، ثم قتل بعد قليل، ولم يكن قد مضى عليه فى السلطة غير ثلاثة شهور.

واستدعى قوصون إبنا آخر من أبناء الناصر محمد وهو كجك ، وولاه العرش فى سنة ١٣٤١م، ولقب بالملك الأشرف، وكان عمره وقتذاك خمس سنوات، فلم يكن من الطبيعى أن يستطيع مباشرة الحكم بنفسه، وأمضى فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام، لم يكن له فيها - كما يقول المقريزى- : (أمر ولا نهى، وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون).

وخلع كجك ، واختار الأمراء أخاه أحمد ليلى السلطنة فى سنة ١٣٤٢م، بالملك الناصر، وكان يقيم وقتذاك فى الكرك، فاستدعى إلى مصر، ولكنه لم يلبث بها إلا قليلاً ثم عاد إلى

الكرك وآثر المقام بها تاركاً أمور الدولة فى مصر والشام بأيدى الأمراء ، فاضطربت الأحوال، وعمت الفوضى، وأرسل الأمراء إلى السلطان يستدعونه للمقام فى عاصمة ملكه ولكنه رفض .

واضطر الأمراء أمام هذا الوضع الغريب إلى خلع الناصر أحمد واختاروا مكانه أخاه إسماعيل الذى لقب نفسه بالملك الصالح، وظل يحكم ثلاث سنوات (١٣٤٢م - ١٣٤٥م) ، ولم يكن خيرًا من أخيه، بل لعله كان أسوأ منه سيرة فقد قال المقريزى بأنه : (أعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين) وذكر أيضًا أنه شارك فى قتل أخيه الناصر أحمد عندما ساءت سيرته فى الكرك ، ولم يعمر الصالح إسماعيل طويلاً، فقد مرض وتوفى سنة ١٣٤٥م .

وولى السلطنة فى نفس السنة ١٣٤٥م ابن خامس من أبناء الناصر محمد هو الكامل شعبان، فسلك سلوك أخيه الصالح إسماعيل وأقبل على حياة اللهو والمجون، وأهمل شئون الدولة والحكم، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين، فأثار غضب الأمراء، فقبضوا عليه وقتلوه ، وتولى السلطة مكانه أخوه حاجى ولقب بالملك المظفر (١٣٤٦م) .

وكان الملك المظفر زين الدين حاجى طفلاً فى الحادية عشرة من عمره عندما تولى العرش، فانطلق يلعب ويلهو، وشغل نفسه بلعب الحمام مع (الأوباش)، فثار عليه الأمراء وخلعوه قبل أن تمضى على حكمه سنة واحدة .

وجاء دور الابن السابع حسن ، فجلس على العرش فى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) وكان فى الثالثة عشرة من عمره ولقب بالملك الناصر ، وطالت مدة حكمه قليلاً، فظل سلطانًا إلى سنة ٧٥٢هـ (١٣٥١م)، ولكنه لم يستطع - لصغر سنه - مباشرة الحكم بنفسه، فاستبد بالأمر دونه كبار الأمراء، بل لقد بلغ بهم الأمر أن جددوا للسلطان مبلغًا لمصروفه اليومى لا يتعداه، يقول المقريزى تعقيبًا على هذا: (ولم يسمع بمثل ذلك، أن يكون ملك يجلس على تخت الملك، ويصرف الأمور بالعزل والولاية، وتحمل إليه أموال مصر والشام، ولا ينصرف منها فى شىء) .

ولم تلبث أن قامت أسباب النزاع والخلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء فقبضوا عليه وسجنوه، وولوا مكانه أخاه الصالح صلاح الدين (١٣٥٠م-١٣٥٤م) ولم تكن حاله فى السلطنة ومع الأمراء خيرًا من حال إخوته، فقد قال ابن تغرى بردى فى حديثه عنه: (لم يكن له فى سلطنته إلا مجرد الاسم فقط، لغلبة الأمراء شيخون وطاز وصرغتمش على الأمر، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقداها، وإليهم أمورها لا لغيرهم) .

وبعد ثلاث سنوات من حكمه قبض عليه الأمر وأودعوه السجن وأطلقوا سراح أخيه الناصر حسن، وأعادوه إلى العرش فى شوال ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) .

وقد قضى السلطان حسن فى سلطنته الثانية ست سنوات (١٣٥٤م - ١٣٦٠م) استطاع خلالها أن يشرف بنفسه على شئون الدولة وأن يدير دفة الحكم، فأثبت كفاءة وجدارة جعلت المؤخرين يشيدون بمقدرته وشخصيته، والحقيقة أنه كان أفضل إخوته جميعًا الذين تولوا

العرش، فقد كان شجاعًا حازمًا كريمًا. وكان له شغف خاص بالعمارة، وفى عهده بنيت المدرسة التى تحمل اسمه (مدرسة السلطان حسن) والتى تعتبر بحق فخر العمارة الإسلامية وأجمل ما بنى فى مصر منذ دخلها الإسلام حتى الآن. يقرر هذه الحقيقة كل المؤرخين الذين كتبوا عنها وكل الرحالة الذين زاروا مصر من شرقيين وغربيين .

ورغم هذه الصفات الحميدة التى اتصف بها السلطان حسن فإن الأمراء لم يستكينوا له، ولم يقلعوا عن سياستهم التى تهدف إلى السيطرة والتدخل فى شئون الحكم. وانتهى بهم الأمر إلى أن قبضوا على السلطان حسن، ثم لم يلبث أن اختفى ولم يعرف مصيره، وإن كانت المراجع تشير إلى أن مماليك الأمير يلبغا قتلوه .

ولم يل السلطنة بعده أحد من أولاد الناصر محمد ، وإنما انتقل الحكم بعد ذلك إلى أحفاد الناصر .

وقد أشرنا من قبل إلى ما وصلت إليه أحوال مصر الداخلية من سوء فى عهد هؤلاء الأبناء نتيجة لتسلط الأمراء وما كان يقوم بين بعضهم والبعض الآخر من أسباب المنافسة والنزاع والتخاصم، مما أدى إلى إهمال شؤون الشعب واضطراب مالية البلاد واقتصادها حتى إن الدولة لم تستطع إرسال المحمل خلال هذه الحقبة غير مرة واحدة .

٣ - سنة الفناء أو الوباء الأسود :

وصاحب هذا كله حدوث الوباء الأسود (فى سنة ٧٤٩هـ = ١٣٤٩م) فى عهد السلطنة الأولى للسلطان الناصر حسن. غير أن هذا الوباء لم يصب مصر وحدها، وإنما بدأ فى بلاد المغول فى المشرق الأقصى، ثم انتقل منها وانتشر غربًا إلى أن وصل إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتقل كذلك عبر آسيا الصغرى إلى أوربا حتى عم العالم كله فى وقت واحد، بل لقد أصاب الحيتان فى أعماق البحار والطير فى عالم الفضاء على حد قول المقريزى وهو يصف هذا الوباء بقوله: (ولم يكن هذا الوباء كما عهد فى إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، جميع أجناس بنى آدم وغيرهم، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر) .

وكانت علامات هذا الوباء أن يظهر للإنسان خراج وراء أذنه أو تحت إبطه ثم لا يلبث أن يبصق دمًا ثم يموت بعد قليل .

وقد فتك هذا المرض بأهالى مصر والشام فتكًا ذريعًا ، فكان يموت منهم فى اليوم الواحد الآلاف، ونتج عن هذا أن قلت الأيدى العاملة، فأغلقت الأسواق، ووقفت حركة البيع والشراء، وأقفرت الأرض لعدم وجود من يفلحها. بل لقد تعطل صيد السمك من البحيرات لكثرة موت الصيادين .

ونتج عن هذا كله اضطراب أحوال مصر الاقتصادية ، وتعطل نواحى الإنتاج المختلفة، ونقص القوى البشرية وإضعافها مما كان له آثار جد خطيرة فى تدهور الدولة المملوكية وضعفها فى المرحلة التالية .

وقد وصف المؤرخان المقريزى وابن تغرى بردى حوادث هذا الوباء وصفًا تفصيليًا، وأسميًا السنة التى حدث فيها بسنة الفناء، قال المقريزى فى (السلوك) : (فكانت سنة كثيرة الفساد فى عامة أرض مصر والشام من كثرة النفاق، وقطع الطريق) . وقال: (وشمل الموت أهل البرلس ونستراوة، وتعطل الصيد من البحيرة لموت الصيادين. وعم الوباء جميع تلك الأراضى، ومات الفلاحون بأسرهم، فلم يوجد من يضم الزرع، وزهد أرباب الأموال فى أموالهم وبذلوها للفقراء) .

وقال: (وتعطلت بساتين دمياط وسواقيها، وجفت أشجارها لكثرة موت أهلها ودوابهم) .

وقال: (ثم كان الحال كذلك بأراضى مصر ، فما جاء أوان الحصاد حتى فنى الفلاحون ، ولم يبق منهم إلا القليل، فخرج الأجناد وغلمانهم لتحصد، ونادوا : من يحصد ويأخذ نصف ما يحصده؟ فلم يجدوا من يساعدهم على ضم الزروع، ودرسوا غلالهم على خيولهم، وذروها بأيديهم، وعجزوا عن كثير من الزرع فتركوه) .

وقال: (وتعطلت أكثر الصناع ، وعمل كثير من أرباب الصنائع أشغال الموتى، وتصدى كثير منهم للنداء على الأمتعة، وانحط سعر القماش ونحوه، حتى بيع بخمس ثمنه وأقل، ولم يوجد من يشتريه، وصارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال، فيباع الحمل منها بأبخس ثمن، واتضعت أسعار المبيعات كلها.. ونودى فى القاهرة: من كانت له صنعة فليرجع إلى صنعته، وضرب منهم جماعة، وبلغ ثمن راوية الماء إلى ثمانية دراهم، لقلة الرجال والمال، وبلغت أجرة طحن الأردب القمح خمسة عشر درهما.. إلخ) .

وقال : (وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر .. وأبطل كثير من الناس صناعاتهم، وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز .. وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس) .

وفى وصف هذه الحالة قال أحد شعراء العصر :

فهذا يوصى بأولاده وهذا يودع إخوانه
وهذا يهيىء أشغاله وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه وهذا يلاطف جيرانه

٤ – أحفاد الناصر محمد (١٣٦١ – ١٣٨٢م) :

أشرنا من قبل إلى أن الأمير يلبغا عزل السلطان حسن بن الناصر محمد وقتله، وقد اختار للسلطنة من بعده صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجى بن الناصر محمد وذلك فى سنة ١٢٦١م، وكان فى الرابعة عشرة من عمره، ولم يعمر فى الحكم غير سنتين (١٣٦١ – ١٣٦٣م) .

ولم يختلف عهد أحفاد الناصر عن عهد أبنائه كثيرًا ، بل لعله كان أسوأ منه، فقد تولى الأحفاد الأربعة العرش وهم أطفال صغار، وقد أشرنا إلى سن صلاح الدين محمد، وقد تولى خلفه الأشرف شعبان فى العاشرة من عمره، واستمرت مدة حكمه ثلاثة عشر عامًا (١٣٦٣م - ١٣٧٦م) ثم أتى من بعده السلطان المنصور علاء الدين على وتولى العرش فى السادسة من عمره (١٣٧٦م-١٣٨١م) . وكان آخرهم السلطان زين الدين أمير حاج وكانت سنه إحدى عشرة سنة ولم يحكم غير سنة واحدة (١٣٨١م - ١٣٨٢م) .

وكان من الطبيعى أن تزداد شوكة أمراء المماليك وأطماعهم ، وأن يتمادوا فى الاستبداد بأمور الحكم دون السلاطين، وأن يصبح هؤلاء السلاطين ألعوبة فى أيديهم يولونهم أو يعزلونهم وفق مشيئتهم وأهوائهم، وأن يشتد بالتالى الصراع بين الأمراء بعضهم والبعض الآخر، وأن ينقسموا شيعًا وأحزابًا ، والشعب من ورائهم يرى ويسمع ولا يجد من يرعى مصالحه أو يعمل لرفاهيته، ولا يملك إلا أن يعلن عن حزنه لموت سلطان أو لعزله أو لقتله، أو أن يقيم الأفراح والزينات احتفالاً بتوليه سلطان جديد .

وقد استفاد من هذا الصراع المماليك البرجية الذين سبق أن جلبهم المنصور قلاوون وأسكنهم أبراج القلعة، وانتهى بهم الأمر إلى عزل حاجى آخر سلالة قلاوون، والقضاء على دولة المماليك البحرية، وإنشاء دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

٥ - حملة بطرس لوزنيان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م :

وكما أصيبت مصر فى عهد أبناء الناصر محمد بسنة الفناء أو الوباء الأسود الذى أتى على الحرث والنسل وأصاب اقتصاديات مصر فى الصميم، فقد تعرضت مصر فى عهد أحد أحفاده وهو الأشرف شعبان لغزوة خارجية أتت على البقية الباقية من ثروة مصر التجارية، فقد نزلت هذه الحملة الصليبية على مدينة الإسكندرية ميناء مصر الأول ومستودع تجارتها الخارجية، ولم تقلع إلا بعد أن خربت المدينة تخريبًا كاملاً، وسلبتها كل ما فيها من غال وثمين .

والحقيقة أن الحركة الصليبية لم تنته بخروج آخر جندى صليبى من عكا وسواحل الشام فى سنة ١٢٩١م، وإنما ظلت الفكرة الصليبية قائمة تداعب خيال الأوربيين وتمارس نشاطها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وأصبحت جزيرة قبرص تحت حكم أسرة لوزنيان، وجزيرة رودس تحت حكم الفرسان الاسبتاريين مركز هذا النشاط الصليبى، وظل هدف الحركة الصليبية فى عهدها المتأخر هو لم يتغير : بيت المقدس والرغبة فى استعادتها من أيدى المسلمين .

ولكن دعاة هذه الحركة ركزوا جهودهم ومشروعاتهم على مصر باعتبارها الحصن الحصين لمنطقة الشرق الأدنى كلها، وعلى حكامها المماليك باعتبارهم السياج القوى الذى يحمى هذا الحصن، وكانت خطة دعاة هذه الحركة تهدف إلى فرض الحصار الاقتصادى على مصر والعمل

على إقفارها، وإذا كانت موارد دولة المماليك فى مصر تعتمد فى معظمها على ما تجبيه من مكوس وضرائب على التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب عبر مصر، فقد أصدر البابوات عدة قوانين تحرم على التجار الأوربيين التعامل مع المسلمين أو الاتجاه بسفنهم إلى موانى مصر والشام، ولكن تجار الجمهوريات الإيطالية لم يطيعوا هذه الأوامر حفاظًا على مصالحهم الاقتصادية المتبادلة مع مصر. فاضطرت البابوية إلى إنشاء قوة بوليسية حربية تعمل على اختطاف أولئك التجار الأوربيين الذى يقدمون على التعامل مع دولة المماليك .

وكانت جزيرة قبرص خير مكان فى شرق البحر الأبيض المتوسط يتخذ لمراقبة سواحل مصر والشام أو للإغارة عليها .

وكان ملك قبرص بيير أو بطرس لوزنيان قد خرج من جزيرته وطاف بممالك أوربا المسيحية يثير حماسهم ويطلب منهم أن يقدموا له كل المساعدات الممكنة لإعداد حملة صليبية جديدة على مصر، ولكنه وجد معظم هؤلاء الملوك قد شغلوا بأنفسهم ومصالح دولهم عن الفكرة الصليبية، فلم يلق منهم غير الوعود، ومع هذا فقد أمده اسبتارية رودس وجمهوريتا جنوة والبندقية ببعض العون .

وخرج بطرس الأول لوزنيان بأسطول ضخم يحمل جيشه الكبير قاصدا إلى الإسكندرية، فوصل إلى مياهها يوم الخميس ٢١ محرم ٧٦٧هـ (٩ أكتوبر ١٣٦٥م) .

وفى صباح يوم الجمعة خرج أهالى الإسكندرية إلى الفضاء المواجه لجزيرة فاروس خارج الأسوار، وانضم إليهم الأعراب الوافدون من الصحراء، وأخطأ والى المدينة فخرج وانضم إليهم يريد الدفاع عن المدينة، فنصحه بعض المغاربة بالعودة وإصدار الأوامر للأهالى كى يدخلوا إلى المدينة ليحتموا جميعا بأسوارها ويدافعوا عنها من ورائها، ولكن الوالى لم يستمع لهذه النصيحة فقد حسب أنه يستطيع من موقعه أن يمنع الفرنج من النزول إلى البر .

ولكن القبارصة كانوا أكثر استعدادًا وتنظيمًا ، فاستطاعوا أن ينزلوا إلى البر، وبعد مناوشات قليلة انتصروا على جموع المحتشدين، فأصيب الأهالى بالذعر الشديد وأسرعوا بالفرار وفى مقدمتهم الأمير جنغرا والى المدينة إلى دمنهور أو إلى القاهرة .

واقتحم القبارصة أبواب المدينة ودخلوها، وانبثوا فى شوارعها ومتاجرها ومنازلها ومساجدها وكنائسها يقتلون وينهبون ويخربون، وينقلون كل مسروقاتهم إلى سفنهم .

وهكذا أمضى القبارصة فى الإسكندرية ثلاثة أيام حتى إذا أحسوا قرب وصول جيش الدولة من القاهرة فروا مسرعين إلى سفنهم التى أثقلت بالمنهوبات حتى اضطروا إلى إلقاء بعضها فى البحر خوفًا على سفنهم من الغرق، وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالى

الإسكندرية منهم كما يقول النويرى المؤرخ السكندرى : (المسلم، والمسلمة، واليهودى، واليهودية، والنصرانى والنصرانية) .

وقد يبدو غريبًا أن تسقط المدينة فى أيدى الأعداء بهذه السرعة وهذه السهولة رغم ما كان يحيط بها من أسوار حصينة وأبراج منيعة، ومع أن خزائن أسلحتها كانت عامرة بالعدة والعتاد، ولكننا نجد التفسير فى ذلك الاضطراب الذى كان يسود مصر فى ذلك الحين، فقد كان على عرشها سلطان طفل لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره هو السلطان الملك الأشرف شعبان، وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى، وكانت جهود هذا الأمير مصروفة كلها لمقاومة منافسيه من أمراء الدولة الآخرين، وزاد الطين بلة أن والى الإسكندرية الأصيل - وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام - كان متغيبًا عن المدينة يؤدى فريضة الحج، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير آخر أقل دراية وأصغر مرتبة هو الأمير جنغرا .

نجح بطرس لوزنيان فى تخريب الإسكندرية ونهبها ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على مصر أو البقاء فى الإسكندرية- بل أنه أسرع بالفرار حين شاهد طلائع المدد القادم من القاهرة، وصدق عليه قول النويرى حين وصفه بأنه : (جاء إلى المدينة لصًا وخرج منها لصًا) .

المراجع العربية

(أ) المخطوطات

الأشرفى (طيبغا البقلميشى اليونانى)

= كتاب غنية الطلاب فى معرفة الرمى بالنشاب. مخطوط بمكتبة كمبردج، رقم p2 ١٧٨ – ٢٤٠.

أمين الخولى

= الجندية فى الإسلام، (رسالة لم تطبع).

ابن أيبك (أبو بكر عبد الله صاحب صرخد)

= كنز الدرر وجامع الغرر، ٩ أجزاء، مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية، رقم ٢٥٧٨.

ابن بعرة (منصور الكاملى، الذهبى)

= كشف الأسرار العلمية، بدار الضرب المصرية، مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

بكتوت الرماح (خازندار الملك الظاهر)

= نهاية السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٣٦٢١ Orient.

بيبرس الدوادار

= زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٨.

الجزرى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مجد الدين أبى إسحاق إبراهيم بن أبى بكر بن إبراهيم بن عبد العزيز)

= تاريخ الجزرى جزء واحد فى ثلاثة مجلدات، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٩٥.

ابن حاتم (بدر الدين محمد)

= السمط الغالى الثمن فى أخبار من ملك من الغزو بلاد اليمن، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٤١١، وتوجد منه صور شمسية بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٦١٣٣.

الحسامي (محمد بن أحمد بن لاجين الطرابلسي)

= كتاب الفروسية برسم الجهاد، مخطوط بمكتبة برلين، رقم ٥٨٨.

الحنبلي (أحمد ابن إبراهيم بن نصر الله)

= شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، صور شمسية بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٣٠ (والأصل مخطوطة بالمتحف البريطاني رقم ٧٣١١).

الخالدي (بهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبد الله بن عبيد الله العمري)

= كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٤٥.

الشجاعي (شمس الدين)

= تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه، برلين ٩٨٣٣، Brockelmann II 28.

العيني (بدر الدين محمود)

= عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ٢٣ جزءا في ٦٩ مجلدًا، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ تاريخ.

ابن الفرات

= تاريخ الدول والملوك، صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٩٧ عن نسخة فيينا.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)

= كتاب السلوك في معرفة دول الملوك، الجزء الثالث، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٤٥.

ابن منكلي (القن محمد)

= الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢٣ فروسية.

مؤلف مجهول

= كتاب الفروسية، المكتبة الأهلية بباريس.

النويري (محمد بن قاسم محمد بن الاسكندري)

= كتاب الإلمام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، مخطوط برلين. راجع اهلواردت Ahlwardt رقم ١٩٨٥.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)

= شرح كتاب الأغانى المعروف باسم تجريد الأغانى من الثانى والثالث، نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ٣ مجلدات، رقم ٥٠١٧ أدب، وصور شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، رقم ٤م أدب.

= التاريخ الصالحى، صور شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

اليونينى (الشيخ قطب الدين)

= الذيل على مرآة الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية.

(ب) المطبوعات

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم)

= طبقات الأطباء، جزءان، المطبعة الوهبية بالقاهرة. ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢م).

ابن أبى الفضائل (مفضل)

= النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد.

Texte Arabe publée et traduit en Françays par E. Bliochet. Patrologie Orientalis. t. XIV. Fasc. 3 paris, 1911, 1930).

ابن أبى الوفاء (محيى الدين أبو محمد عبد القادر)

= الجواهر المضية فى طبقات الحنفية، جزءان، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر أباد الدكن ١٣٣٢ هـ.

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على)

= الكامل فى التاريخ، ١٢ جزءا، المطبعة الأزهرية بالقاهرة، ١٣٠١ هـ.

= اللباب فى تهذيب الأنساب، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٣٥٧ هـ - ١٣٦٩ هـ.

ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد)

= رسائل ابن الأثير، نشر أنيس المقدسى، بيروت، ١٩٥٩م.

ابن الاخوة

= معالم القربة فى أحكام الحسبة، طبعة روبين ليفى Rubien Levy، بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial.

الأدفوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب)

= الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، القاهرة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م).

الإسحاقى (محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى المنوفى)

= كتاب أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول القاهرة، ١٣١١هـ.

أفرام (الأب أغناطيوس الأول)

= الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية، بحث فى مجلة المجمع العربى بدمشق، أعداد سنة ١٩٥٠م.

ابن الأكفانى (محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى السنجارى)

= نخب الذخائر فى أحوال الجواهر، نشره الأب أنستاس الكرملى، القاهرة ١٩٣٩ م ونشره قبل ذلك الأب لويس شيخو فى مجلة المشرق السنة ١١).

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد)

= كانت تاريخ مصر، المعروف باسم بدائع الزهور، ٣ أجزاء، بولاق، ١٣١١هـ - ١٣١٢ هـ.

بامخرمة (أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد)

= تاريخ ثغر عدن، مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندى والأهدل، نشره Oscar Lôfgren، جزءان، ليدن، ١٩٣٦م.

البتانونى (محمد لبيب)

= رحلة الأندلس، القاهرة، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

بدر (الدكتور مصطفى طه)

= محنة الإسلام الكبرى، أو زوال الخلافة العباسية على أيدى المغول، القاهرة، ١٩٤٧م.

البستانى

= محيط المحيط، جزءان، بيروت، ١٨٦٧م - ١٨٧٠م.

ابن بطوطة

= مهذب الرحلة، نشر أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى، جزءان، القاهرة، ١٩٣٣م - ١٩٣٤م.

البغدادى (عبد اللطيف)

= الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، القاهرة، ١٢٨٦ هـ.

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى)

= سيرة أحمد بن طولون، نشر محمد كرد على، دمشق، ١٩٣٩م.

البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد)

= كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٥٥ هـ.

بينز (نورمان)

= الإمبراطورية البيزنطية، الترجمة العربية للدكتور حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٠م.

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ظهر منه ١٢ جزءًا، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م - ١٩٥٦م.

التنوخى

= نشوار المحاضرة، طبعة مرجليوت Margoliouth.

تيمور (أحمد باشا)

= لعب العرب، القاهرة، ١٩٤٨م.

= نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة، المطبعة السلفية.

= التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن، القاهرة، ١٩٤٢م.

ابن تيمية

= الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية.

ثابت (نعمان)

= الجندية فى الدولة العباسية، بغداد، ١٢٥٨ هـ (١٩٣٩م).

الجاحظ

= البخلاء، نشر الدكتور طه الحاجرى، القاهرة، ١٩٤٨م.

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد)

= الرحلة، الطبعة الثانية، ليدن، ١٩٠٧م.

الجواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر)

= المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٦١ هـ.

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على)

= المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الأجزاء ٥ - ١٠، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٣٥٧هـ - ١٣٥٨ هـ.

ابن الجيعان (شرف الدين يحيى)

= التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر مورتز، القاهرة، ١٨٩٨م.

حاجى خليفة (مصطفى، المسمى كاتب شلبى)

= كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، طبع النسخة العربية وترجمها إلى اللاتينية فلوجل G Flugel، ليبزج ولندن، ١٨٣٥م - ١٨٥٨م.

حبشى (دكتور حسن)

= الحرب الصليبية الأولى، القاهرة، ١٩٤٧م.

= نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م.

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن على، العسقلانى)

= لسان الميزان، ٦ أجزاء، حيدر آباد، ١٣٢٩هـ - ١٣٣١ هـ.

= رفع الإصر عن قضاة مصر، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢١١٥.

= الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، طبعة حيدر أباد الهند سنة ١٩٤٨ م - ١٣٥٠ هـ.

أبو حديد (محمد فريد)

= صلاح الدين الأيوبى وعصره، القاهرة، ١٩٢٧م.

حسن (الدكتور حسن إبراهيم)

= الفاطميون فى مصر، القاهرة، ١٩٣٢م.

= السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية، عن الفرنسية، تأليف فان فلوتن، القاهرة، ١٩٢٣ م.

= انتشار الإسلام بين المغول والتتار، بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية، مايو ١٩٣٣م.

= انتشار الإسلام فى الهند، بحث فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة الصادرة سنة ١٩٤٤م.

حسن (الدكتور زكى محمد)

= مصر والحضارة الإسلامية، الرسالة الخامسة عشرة من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها وزارة الدفاع الوطنى.

حسن (الدكتور على إبراهيم)

= جوهر الصقلى، القاهرة، ١٩٣٣م.

= مصر فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٧م.

= النظم الإسلامية، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن، القاهرة، ١٩٣٩م.

= الجيش والبحرية فى عصر المماليك، الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة للشئون العامة فى وزارة الدفاع الوطنى القاهرة، مارس ١٩٤٤ م.

= آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية، بحث فى مجلة كلية الآداب، المجلد السابع، ١٩٤٤م.

الحسن بن عبد الله

= آثار الأول فى ترتيب الدول، بولاق، ١٢٩٥ هـ.

حسين (محمد أحمد)

= أسامة بن منقذ، القاهرة، ١٩٤٦م.

حسين (الدكتور محمد كامل)

= فى أدب مصر الفاطمية، القاهرة، ١٩٥٠م.

ابن حمديس (أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر، الصقلى)

= ديوانه، رومة، ١٨٩٧م.

حمزة (الدكتور عبد اللطيف)

= حكم قراقوش، القاهرة، ١٩٤٥م.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد)

= المسالك والممالك والمفاوز والمهالك، ليدن، ١٨٢٢م.

الخفاجى (شهاب الدين أحمد)

= شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل، بولاق، ١٢٨٢ هـ.

ابن خلدون (عبد الرحمن)

= المقدمة، القاهرة، ١٣٢٢ هـ.

= العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء، القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)

= وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان، ٣ أجزاء، القاهرة ١٢٩٩ هـ. و ٦ أجزاء، طبعة محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨م.

الخوزرامى (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف)

= مفاتيح العلوم، القاهرة، ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠م).

ابن خير الله الخطيب العمرى (ياسين)

= منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء، نشر سعيد الديوه جى، الموصل، ١٩٥٥م.

دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)

= مادة: أتابك، إربل، ألموت، جريب.

ابن الدبيثى (محمد بن سعيد بن محمد)

= تاريخه - باختصار الذهبى - نشره الدكتور مصطفى جواد، الجزء الأول بغداد، ١٣٧١ هـ (١٩٥١م).

ابن دمية (أبو الخطاب عمر أبى على)

= النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس، نشره عباس العزاوى، بغداد ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦م).

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى)

= الانتصار لواسطة عقد الأمصار، الجزءان ٤ و ٥، بولاق، ١٣٠٩ هـ.

الديوه جى (سعيد)

= الموصل فى العهد الأتابكى، بغداد، ١٩٥٨م.

= الجامع المجاهدى فى مختلف العصور، مجلة سومر، ١١.

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (ظهر منه حتى الآن ٦ أجزاء)، مكتبة القدسى، القاهرة ١٣٦٧ - ١٣٦٩ هـ.

= تذكرة الحفاظ، ٤ أجزاء، حيدر أباد (بدون تاريخ).

رشيد الدين فضل الله:

= كتاب جامع التواريخ، ترجمه إلى الفرنسية مسيو اتين كترمير، وانتهى من تأليفه حوالى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١م).

رمزى (محمد)

= القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القاهرة ١٩٥٤م.

الرملى (شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن حمزة)

= الفتاوى، وهو مطبوع على هامش كتاب «الفتاوى الكبرى» لابن حجر الهيثمى، القاهرة، ١٣٠٨ هـ.

زامباور

= معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، الترجمة العربية للدكتور زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرين، جزءان مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥١ - ١٩٥٢.

الزبيدى (السيد المرتضى)

= تاج العروس من جواهر القاموس، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٣٠٦ - ١٣٠٧ هـ.

زترستين

= تاريخ سلاطين المماليك، نشره ك. ف. زترستين، لندن، ١٩١٩م.

الزركلى

= الأعلام، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٤م - ١٩٥٩م.

زكى (محمد أمين)

= خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمه إلى اللغة العربية محمد على عونى، القاهرة، ١٩٣٦م.

زيادة (الدكتور محمد مصطفى)

= المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، القاهرة، ١٩٤٩م.

زيدان (جرجى)

= تاريخ التمدن الإسلامى، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٣٥م.

ابن الساعاتى (بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن رستم)

= ديوان شعره، مجلدان، نشره أنيس المقدسى، بيروت، ١٩٣٨م - ١٩٣٩م. (مطبوعات الجامعة الأمريكية فى بيروت).

ابن الساعى (أبو طالب على بن أنجب تاج الدين)

= الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير، الجزء التاسع، نشره الدكتور مصطفى جواد، بغداد، ١٩٣٤م.

سبط ابن التعاويذى (أبو الفتح محمد بن عبيد الله)

= ديوان شعره، نشر مرجليوث، القاهرة، ١٩٠٣م.

سبط أبو الجوزى.

= مرآة الزمان، الجزء الثامن، القسمان الأول والثانى فى مجلدين، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٧٠ هـ (١٩٥١م).

سرهنك (إسماعيل)

= حقائق الأخبار عن دول البحار، جزءان، المطبعة الأميرية، ٣١٤ هـ.

السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين)

= طبقات الشافعية، ٦ أجزاء، القاهرة ١٣٢٤ هـ.

= معيد النعم ومبيد النقم، لندن، ١٩٠٨م، طبعة داود ولهلم موهرمان.

سركيس (يوسف إليان)

= معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨م).

السلفى (أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد)

= معجم السفر، مخطوط بدار الكتب المصرية.

ابن سناء الملك (أبو القاسم هبة الله بن جعفر)

= دار الطراز، نشر الدكتور جودة الركابى، دمشق، ١٩٤٩م.

= ديوان شعره، صور شمسية بدار الكتب المصرية، رقم ٤٩٣١ أدب.

ابن سيدة (أبو الحسن على بن إسماعيل)

= المخصص، ١٧ جزءا، بولاق، ١٣١٦هـ - ١٣٢١ هـ.

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)

= تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، القاهرة، ١٣٥١ هـ.

= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزءان، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

= بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة، ١٣٢٦ هـ.

= طبقات الحفاظ، ٣ أجزاء، غوطا، ١٨٣٣م.

ابن شاكر الكتبى (محمد بن أحمد)

= فوات الوفيات، طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد، جزءان، القاهرة، ١٩٥١م.

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى)

= كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جزءان، مطبعة وادى النيل بالقاهرة، ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ. (وقد نشره أخيرا الدكتور محمد حلمى أحمد نشرة علمية، ظهر منها الجزء الأول فى مجلدين، القاهرة، ١٩٥٦م و ١٩٦٢م).

ابن شاهين (غرس الدين خليل)

= زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٤م.

ابن الشحنة (محب الدين أبو الفضل محمد)

= الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، نشره يوسف بن إليان سركيس، بيروت، ١٩٠٩م.

ابن شداد (بهاء الدين)

= النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٤م.

ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد الحلبى)

= الأعلاق الخطيرة - تاريخ مدينة دمشق - نشر الدكتور سامى الدهان، دمشق، ١٩٥٦ م.

شرف (الدكتور طه)

= دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن الصباح، القاهرة ١٩٥٠ م.

الشوكانى (محمد بن على)

= البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جزءان، القاهرة ١٣٤٨ هـ.

الشيال (الدكتور جمال الدين)

= الاسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، القاهرة، ١٩٥٢ م.

= جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، بحث لم ينشر بعد.

= معجم السفن العربية، مخطوطة لم تطبع بعد.

= دراسات فى التاريخ الإسلامى، بيروت، ١٩٦٦م.

= أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٥م.

= مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية، ١٩٤٩م.

= مجموعة الوثائق الفاطمية، القاهرة ١٩٥٨م.

= الوثائق الفاطمية مصادر جديدة لدراسة تاريخ الفاطميين (المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس، ١٩٥٦ م).

الصابونى (أحمد بن إبراهيم).

= تاريخ حماة، حماة ١٣٣٢ هـ.

الصابى (أبو إسحاق هلال)

= تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، القسم الأول، بيروت ١٩٠٤ م.

صالح بن يحيى

= تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى المغرب نشر لويس شيخو، بيروت، ١٨٩٨ م.

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)

= الوافى بالوفيات. نشر المستشرق هـ. ريتر، الجزء الأول. مطبعة الدولة باستانبول ١٩٣١ م.

= نكت الهيمان فى نكت العميان، نشر أحمد زكى باشا، القاهرة، ١٩١٠ م طوسون (عمر).

= كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن الاسكندرية ١٩٣١ م ابن طباطيا (محمد بن على).

= الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة، ١٩٢٣ م.

الطرطوشى (أبو بكر محمد بن محمد)

= سراج الملوك، القاهرة ١٩٣٥ م.

عبادة (عبد الفتاح)

= سفن الأسطول الإسلامى، القاهرة ١٩١٣م.

عبد اللطيف (محمد فهمى)

= الفتوة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٨ م.

ابن عربى (محيى الدين)

= محاضرة الأبرار، ومسامرة الأخبار، فى الأدبيات والنوادر والأخبار، القاهرة، ١٩٠٦ م.

عرنوس (محمود محمد)

= تاريخ القضاء فى الإسلام، القاهرة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م.

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى)

= شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ١٢ جزءًا، القاهرة، ١٣٥٠هـ - ١٣٥٣ هـ.

العماد الكاتب الأصفهانى (أبو عبد الله محمد بن محمد)

= خريدة القصر وجريدة العصر. القسم الأول - شعراء مصر - فى جزأين، نشره أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس، القاهرة، ١٩٥١م - ١٩٥٢ م.

= الفتح القسى فى الفتح القدسى، القاهرة، ١٣٢١ هـ.

ابن عمار البغدادى

= الفتوة، نشر الدكتور فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٩ م.

عمارة (نجم الدين أبو محمد اليمنى)

= تاريخ اليمن، نشره كاى، لندن ١٣٠٩هـ.

= النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية، ٣ أجزاء، نشره در نبرج، شالون، ١٨٩٧ م.

المرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله)

= مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ٢٠٠ جزءًا، مخطوط – بدار الكتب المصرية، رقم ٢٥٦٨.

= مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، الجزء الأول، نشره وعلق عليه المرحوم أحمد زكى باشا، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م

= التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢ هـ.

عنان (محمد عبد الله)

= تراجم إسلامية (شرقية وأندلسية)، القاهرة، ١٩٤٧ م.

= مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٣١ م.

العنيسى (القس طوبيا، الحلبى)

= تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية مع ذكر أصلها، القاهرة، ١٩٣٢ م.

عواد (ميخائيل)

= المآصر فى بلاد الروم والإسلام، بغداد، ١٩٤٨ م.

عيسى (أحمد)

= تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، القاهرة، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م

أبو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة)

= المختصر فى أخبار البشر ٤ أجزاء، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

ابن الفوطى (أبو الفضل عبد الرازق البغدادى)

= الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، نشره الدكتور مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١ هـ.

(فبيت جاستون)

= المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى، مقالة نشرت فـى (L' Egypt Contemporaine (1933. Pp. 241 – 264) ونقلها إلى العربية الأستاذ محمد وهبى.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى)

= المعارف، القاهرة، ١٩٣٥ م.

ابن قلاقس (أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله)

= الديوان، نشر خليل مطران، مطبعة الجوائب، القاهرة ١١٢٢ هـ

ابن القلانسى (أبوة يعلى حمزة)

= ذيل تاريخ دمشق، نشره مع مقدمة إنجليزية أمدروز، بيروت، ١٩٠٨ م.

القلقشندى (أبو العباس أحمد)

= صبح الأعشـى فـى صناعـة الإنشـا، ١٤ جـزءا، مطبعـة دار الكتـب المصريـة، القـاهرة، ١٩١٣م – ١٩١٩ م.

= ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، القاهرة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦ م.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر)

= البداية والنهاية، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٥٨ هـ.

كرد على (محمد)

= خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥م – ١٩٢٨م.

= غوطة دمشق، دمشق، ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩ م.

الكرملى (الأب أنستاس مارى)

= ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب، بحث فـى مجلـة الرسـالة، العـدد ٤١١، ١٩ مـايو سنة ١٩٤١ م.

الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف)

= كتاب الولاة والقضاة، به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب «رفع الإصر عن قضـاة مصر» لابـن حجر العسقلانى، طبعة رفن جست

(E. J. V. Gibb Memerial Series, Vol. XIX, 1912).

ابن مالك (محمد بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى)

= كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، القاهرة، ١٩٣٩م.

الماوردى (أبو الحسن على بن محمد)

= الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٢٩٨هـ

مبارك (على)

= الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ٢٠ جزءًا، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

محمد بن الحسن (الديلمى اليمانى)

= قواعد عقائد آل محمد، القاهرة، ١٩٥٠ م.

مختار (اللواء محمد، باشا)

= التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٣١١ هـ.

مرسى (محمد كامل)

= الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة إلى الآن، القاهرة، ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م.

مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى

= تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء، نشر أجزاء منها مع ترجمة فرنسية وتعليقات الأستاذ كلود كاهن.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين)

= التنبيه والإشراف، القاهرة، ١٩٣٨ م.

مصلحة البريد

= تاريخ البريد فى مصر، القاهرة ١٩٣٤م، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر بالقاهرة وللذكرى السبعينية لإنشاء مصلحة البريد.

مصلحة المساحة المصرية

= فهرس مواقع الأمكنة، بولاق، ١٩٣٢ م.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

= اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨ م.

= اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلف، مخطوطة طوب قبو سواى.

= إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٠.

= إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، الجزء الأول نشر محمود شاكر، القاهرة، ١٩٤١ م.

= البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، نشر إبراهيم رمزى، القاهرة، ١٩١٦ م.

= السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة (ظهر منه الجزء الأول فى ٣ مجلدات والجزء الثانى فى ٣ مجلدات)، القاهرة، ١٩٣٤ م - ١٩٤٢ م.

= الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥ م.

= المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، مطبعة النيل بالقاهرة ١٣٢٤ هـ - ١٣٢٦ هـ.

= نحل عبر النحل، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٦ م الملطى (أبو الفرج، جريجورى المسمى بارهبرايس)

= مختصر الدول، بيروت، ١٩٨٠ م.

ابن مماتى (الأسعد بن مليح)

= قوانين الدواوين، مطبعة الوطن بالقاهرة ١٢٩٩ هـ، ونشره الدكتور عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر بالقاهرة، ١٩٤٣ م.

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقى المصرى)

لسان العرب، ٢٠ جزء ١، بولاق، ١٣٠٢ - ١٣٠٧ هـ.

ابن منقذ (أسامة)

= كتاب الاعتبار، نشر فيليب حتى.

النعسانى (الشيخ طاهر)

= أسامة بن منقذ، محاضرة ألقيت فى المجمع العلمى العربى بدمشق، ١٩١٥، طبعت فى حماة (بدون تاريخ).

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

= نهاية الأرب فى فنون الأدب، ظهر منه إلى الآن ١٨ جزءًا، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٣م - ١٩٥٦م .

ابن هذيل (على عبد الرحمن، الأندلسى)

= حلية الفرسان، وشعار الشجعان. نشر محمد عبد الغنى حسن، القاهرة، ١٩٤٩م.

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك)

= السيرة النبوية نشر مصطفى السقا وإبراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ٤، أجزاء، القاهرة، ١٩٣٦ م.

الهيتمى (أحمد شهاب الدين بن محمد بدر الدين بن محمد شمس الدين بن على نور الدين ابن حجر).

= كتاب الفتاوى الكبرى الفقهية، جزءان، القاهرة، ١٣٠٨ هـ.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)

= مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، نشر جمال الدين الشيال، ظهر منه ٣ أجزاء، القاهرة ، ١٩٥٣ و ١٩٥٧ و ١٩٦١.

ابن الوردى (زيد الدين عمر)

= تاريخ ابن الوردى، جزءان.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى)

= معجم البلدان، ليبزج، ١٨٧٠ م.

= معجم الأدباء، طبعة فريد رفاعى، ٢٠ جزءًا القاهرة، ١٩٣٦ م.

المراجع غير العربية

Allan (J.)

= The Cambridge Shorter History of India (Cambridge, 1924).

Allen

= History of the Georgian People. London, 1932.

Aly (Bahgat)

= Les Manufactures d'étoffe en Egypte, au Moyen-Age. (Le Caire, 1904).

Arnold (T. W.)

= The Caliphate, (Oxford, 1924).

Atiya (A. S.)

= The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938).

= Egypt and Aragon, (Leipzig, 1939).

Embassis and Diplomatic Correspondences between 1300 and 1330 A. D.

= An unpublished XIV th Century Fatwa on the Status of Foreigners in the Mamluk Egypt and Syria.

= Studien Zur Geschichte des Nahen and Fernen Ostens (Festchrift Paul Kahle) Leiden, 1635, pp. 55 et Seq.

Blochet (E.)

= Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). (Extriat de la Revue d'Orient Latin, tomes VI. VIII-XI).

Brockelman (S.)

= Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).

Browne (E. G.).

= Literary History of Persia – from the Earliest Times until Firdawsi.

(Lond., 1909).

= Literary History of Persia under Tartar Domination (1265 – 1502 A. D.) Vol. II (Cambridge, 1928).

Budge (E.A.W.)

= A History of Ethiopia: Nubia and Abbyssinia.

2 Vols.

Cahen (CLAUDE).

= La Syrie du Nord à l'Epoque de Croisades et La Principauté Franque D'Antioche, Paris, 1940.

= Un Traité d'Armurerie Composé pour Saladin. (Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales. Damas. Tome XII, 1947-1948).

= Correspondance de Diyá ad-Din Ibn al-Athir (B.S.O.S. vol. XIV. Part 1).

= La Tughrâ Sejukide (Journal Asiatique, 1945)

= Une Chronique Syrienne du VI (XII) Siècle.

Le Bustan Al-Jam'i, (Bullectin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas. 1938).

(Cam. Med. Hist.): Cambrigde Medieval History (vol. IV).

Gasanova

= Les Dernièrs Fatimides. (Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, Tome VI, 1893. pp. 415-445).

Christensen (A.).

= L'Empire des Sassanides. (Copenhague, 1907, Mémoires de ;'Academie Royale des Scienceset des Lettres de Denmark).

Colin (G. S.) et E. Lévi – Provençal.

= Un Manuel Hispanique de Hisba. (Paris, 1931).

D'Hosson (Baron).

= Histoire des Mongols depuis Techinguiz Khan jusqu' à Timour Bey ou Tamerlan. Vol. III (The Hague Amsterdam, 1934 – 1835).

Demombynes (G.)

= La Syrie A L'Epoque des Mamelouks (Paris, 1922).

De Sacy (S.)

= Bibiothéque des Arabissants Français (Le Caire, 1933). (Mem. I. F. A. Caire).

Devonshire (R. L.)

= Rambles in Cairo. (Cairo. 1931).

The Cambridge Shorier History of India (Cambridge, 1924).

Dozy (R.Q.A.)

= Dictionnaire des Noms des Vétements chez les Arabes. Amesterdam, Müller, 1845.

= Supplément Aux Dictionnaires Arabes. Brill, Leiden, 1881.

Dussaud (R.)

= Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale. Paris, 1927.

Ehrenkreutz.

= The Standard of Fineness of Gold Coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades. (Jouraal of the American Oriental Society. Vol. 74, No. 3 July-Sept. 1954. pp. 162-166).

= Extracts from the Technical Manual on the Ayyubid Mint in Caito (B.O.A.S. 1953. XV/3. pp. 424-447).

Encylopedia of Islam.

Gerald de Gaury.

- Rulers of Mecca. London, 1951.

Gibb (H. A. R.)

= Arabic Sources for the Life of Saladin. (Speculum. Vol. XXV. No. 1 January 1950. pp. 58-74).

Hassan (H. I.).

= Relations between Egypt and the Caliphate. (Cairo, 1940).

Hautcoeur (L.) et Wiet (G.).

= Les Mosquées du Caire (2 vols.), (Cairo, 1932).

Heyd: (W.).

- Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Ages Vol. II, (Leipzig, 1925).

= Histoire des Patriarches d'Alexandrie. Trad. : Blochet, Revue de L'Orient Latin, 1907.

Hitti (Philip).

- An Arab Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades. New York, 1929.

- The History of the Arabs. (London, 1940).

Haworth (Sir Henry).

- History of the Mongols. Part III Vol. IV London. 1976-1988.

Ibn Jubayr.

- The Travels of- Edited by W. Wright, second edition revised by M. J. De Goeje. Leyden, 1907.

Ibn al-Qalanisi.

= Damas De 1075 A 1154. (Traduction annotée d'un fragment de l'Histoire De Damas d'Ibn al-Qalànisè par Roger Le Tourneau). Damas, 1932.

Kay (H. Cassels)

- Yaman, Its Early Médival History. London, 1982.

Kindermann.

= Sehiff im Arabischen. Zwickaw, 1934.

King

= The Knights Hospitallers in the Holy Land. London. 1931.

Lane – Poole (St.)

= Mohammadan Dynasties. Westminster, 1894.

= Saladin and the Fall of the Kiugdom of Jerusalem. London, 1898.

= The art of the Saracens. London. 1888.

= The Story of Cairo. London, 1902.

= History of Egypt in the Middle Ages. London, 1912.

= Medieval India Uder Muhammadan Rule-London, 1912.

Lavoix (H.).

= Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliotèque Nationale, Egypt et Syrie.

Leuis (Bernard).

= The Origins of Ismà'ilism. Cambridge, 1940.

= Saladin and the Assassins. (B. S. O. A. S. 1953. XV/2).

= The Sources for the History of Syrian Assassins (Speculenm, 1952 XXVIII/4).

Le Strange (Y.)

= Palestine Under the Moslems. London, 1980.

Marcel (M. J. J.)

= Histoire de l'Egypte depuis la Conquête des Arabes Jusqu'à l'Expedition Française Paris, 1848.

Mayer (L. A.)

Saracenic Heraldry, Oxford, 1933.

Merçier (L.)

= La Chasse et les Sportes chex les Arabes. Paris, 1927.

Michel (B.)

= L'Organisation Financière de l'Egypte sous les Sultans Mamlouks d'après Qalqachandi. Lé Caire, 1925.

= (Extrait de bulletin de l'institut d'Egypte, t. VII. Session 1924-1925.

Muir (W. E.)

= The Mameluks or Slave Dynasty of Egypt. London, 1896.

= The Caliphate, its Rise, Decline and Fall. Oxford, 1902.

O'Leary (De Lacy).

= A Short History of the Fatimid Khalifate. London, 1923.

Paetow.

= A Guide to the Study of Medieval History. London, 1921.

Poliak (A. N.).

= Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Labanon. London, 1939.

= Les Revoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Memelouks et leurs Causes Economiques. Vol. 8 (1934).

Quatremère (E.).

= Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 vols., Paris, 1837-1845.

= Recueil des Historiens des Croissdes (Historiens Occidentaux).

Rikabi (Gawddt).

= La Poésie Profane sous les Ayyubides. Paris. 1949.

Runciman.

= A History of the Crusades. Vol. I The First Crusade. Vol. 2 The Kingdom of Jerusalem. Cambridge University Press. 1951-1952.

Sanhoury (A. A.)

= Le Califat. Paris, 1926.

Souvaget.

= Monuments Historiques de Damas.

Steingass (F.).

= Persian English Dictionary. London, 1930.

Stern (S. M.)

= The Succession of the Fatimid Imam Al-Amir. The Claims of the Later Fatimids to the Imamate and the Rise of Tayyibi Ismailism. (Oriens, vol. 4, No. 2, pp. 193 ff).

Stevenson.

= The Crusaders in the Fast. Combridge University Press. 1907.

Taimiya (Taki D. Din Ahmed).

= "Essai sur les Dactrines Sociales et Politiques". Le Caire, l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1939.

Toussoun (Le Prince Omaar)

= Le Géographie de'Egypte à l'Epowue Arabe 1. lère 1 2 partiers, (Méinoires de la Société Royale de Géogrophie d'Egype, t VIII. 1êre, 2 ème. parties. Le Caire, 1926-1928.

Van Berchem (Max).

= Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Le Caire, 1824 (Mem. I.F.A. Caire).

Weill (D.)

= Cataloque Général du Musée Arabe, objets en Cuivre, t. III.

Well (G.)

= Geschichte de Abbasiden chalifas in Egypten. Stuttgart, 1860-1862. Vo. I.

Wiet (G.).

= Historie de la Nation Egyptienne, t. IV (L'Egypte Arabe). Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II. L Caire, 1931.

= Les Biographies du Manhal Safi. Memoires présentés à l'Institut d'Egypt. Le Caire, 1932.

= Trois formules d'independence dans L'Egypte Mediévale. Ed. de la Revue du Caire, 1945.

= Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypt, tome II. Mem de l'Institut fr. d'archéologie Orientale, 1930.

Wright (R.N.)

= The Coins and Metrology of the Sultan of Delbi, 1936.

Zambaur (E. De.)

= Manuel de Genealogic et de Chronologic pour l'Histoire de l'Islam. Hanovre, 1927.

Zaky Hassan

= Les Tulunides. Paris, 1934.

Ziada (M. Mostafa)

= The Mamlouck Conquest of Cyprus in the 15th Century. (Bulletin of the Faculty of Arts. Egyptian University, Cairo, vol I. Part I 1933. Vol. II, Part 1, 1934)..